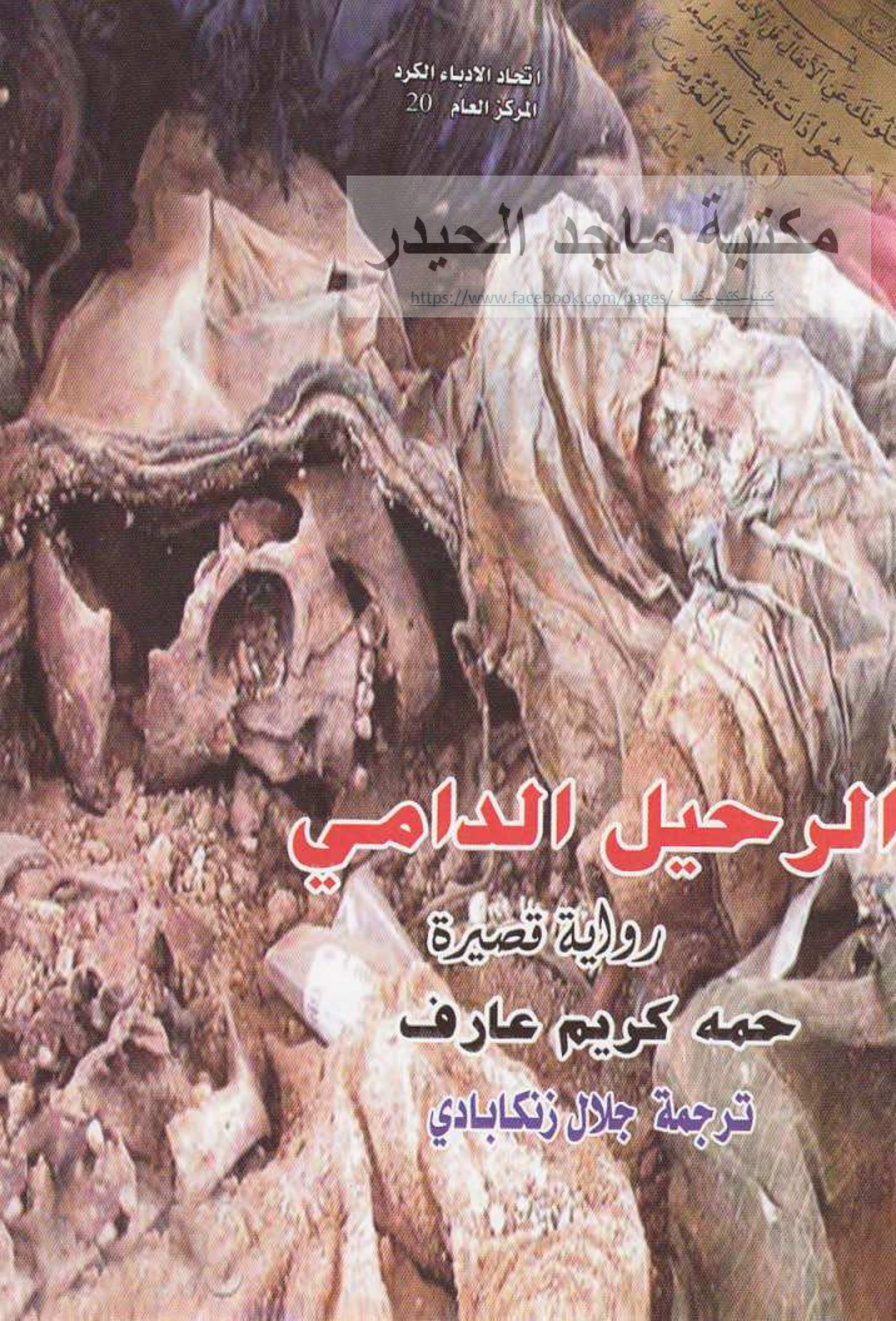

اتحاد الادباء الكرد
المركز العام 20
الرحيل الدامي
رواية قصيرة
حمه كريم عارف
ترجمة جلال زنكابادي



اتحاد الادباء الكُرد

المركز العام ٢٠

عنوان الكتاب: الرحيل الدامي(رواية قصيرة)

تأليف: حمه كريم عارف

ترجمة: جلال زنگابادي

الطبعة الاولى- ٢٠١٢

تصميم الغلاف:ستار قرداخي

مطبعة:رۆژهەلأت- اربيل

رقم الايداع في المديرية العامة للمكتبات العامة (٥٨٨) سنة ٢٠١٢

حمه كريم عارف

الرحيل الدامي

(رواية قصيرة)

ترجمة ودراسة:

جلال زنگابادي

الإهداء

مهداة إلى الروح الطاهرة للفنان المأسوف على شبابه كامران صديق

حمه كريم عارف

(الرحيل الدّامي)
رواية كرديّة رائدة

جلال زنكَابادي

لهذه الرواية بنية فنيّة محبوكة رشيقة ومتماسكة تستند بالأخص إلى تقنية البوليفونيّة (تعدّديّة الأصوات الساردة) تكريساً لطرح تعدّدية وجهات النظر، ولذا فهي تتسم بديناميّة عالية تفتقر إليها الحبكة التقليديّة ، التي يحتكر فيها (الراوي العليم) عموماً مهمة السرد ؛ ففي البوليفونيّة ينحسر السرد الأحادي ، لتحل محله السرود المتعدّدة ، التي تتيح حريّة تصوير المشاهد والمواقف من منظور تعددي إضافة إلى استبطان دواخل الشخصيّات لتعبّر بحريّة عن خصوصيّاتها، في حين يخفت صوت (الراوي العليم) وتتلاشى هيمنته البطريركيّة الفارضة لأحادية المنظور على فضاء الرواية قسراً ؛ فهنا تسود النغمة الإحتمالية والشكوكية المجسّدة لإشكاليّات طبائع الشخصيّات، حيث يدخل القارىء " في متاهات المعضلات الإنسانيّة التي تعاني منها الشخصيّات ؛ لا بغية التوحّد معها من منطلق التفوّق أو حتى التعاطف ، كما كان الحال في الرواية التقليديّة ، وإنما من منطلق الإكتشاف الذي يتطلب درجة واضحة من درجات الإنفصال عن الموقف الروائي" (١)

من الجليّ أن الكاتب القدير حمه كريم عارف قد أفلح في الهيمنة على إدارة حبكة الرواية بالتحكم بتقنية البوليفونية، التي كسرت رتابة السرد؛ حيث لايطغى على (الرحيل الدامي) راو عليم كليّ المعرفة ، وإنما ثمّة ثلاثة مستويات أو ثلاث طرق سرديّة للسرد تتيح القفز والنقلات بين الأمكنة والأزمنة المختلفة ومستوى الواقع في السرد ؛ لتقديم مجمل الرواية بما فيها من شخصيّات وأحداث وأفكار...ويمكننا تصنيف رواتها، وهم يتموضعون في (مستوى الواقع) وهو مستوى عالم واقعي ، وليس فنتازياً، كما يلي:

١- مستو: وهو راوي – شخصيّة رئيسة يروي بلسان الشخص الأول المتكلم (أنا) ويختلط في منظوره مكان الراوي مع المكان المروي ، ويطغي المونولوغ على سرده، وبطريقة (الإلتفات) أحيانا قليلة.
٢- صادق: مثله راوي – شخصيّة رئيسة ، ولكن بطريقة (الإلتفات) عموماً. و(الإلتفات) هو التحدث إلى النفس باتخاذ ضمير المخاطب (أنت) ذريعة لذلك.
٣- (الراوي الملتبس) والذي لايعرف عنه إذا ما كان يروي من داخل العالم المروي ، أم من خارجه، وهو حديث العهد، انه نتاج الرواية الحديثة حسب توصيف ماريو بارغاس يوسا(٢) وهو في (الرحيل الدّامي) أكثر شبهاً بالراوي العليم ، حيث يظهر ويتدخل بلسان الشخص الثالث (الغائب) بين حين وآخر؛ لإعادة وتسيير عمليّة السرد، بدون المشاركة في الأحداث، بلا غطرسة ولا إقحام لآرائه ومواعظه وأحكامه. وثمّة أيضاً رواة آخرون ثانويّون تتشعب سرودهم (بطريقة إسناديّة) من سرود الرواة الثلاثة الأساسيّين ؛ ولذا يحدث تداخل وتقاطع وتشابك سردي . ومن الملحوظ أن (الفلاش باك) يهيمن عموماً على تأثيث (الرحيل الدامي) و هو يعوّل بطبيعته على الذاكرة و المخيال.

معلوم أن الحبكة في الأجناس السردية هي " سياق الأحداث والأعمال وترابطها ؛ لتؤدّي إلى خاتمة" (٣) والترابط عموماً سببيّ يتأسّس على العلاقة الجدليّة بين السبب والنتيجة. والسرد ينتظم في الحبكة الضابطة لجريانه، و في (الرحيل الدّامي) تتجلى العلاقة الجدليّة لأنماط الزمن بتعدّديّة السرد و تنوّعه ، وهو سرد يتشعّب إلى: **السرد الإعتيادي** و **السرد الإسترجاعي** التذكري الذي يستعيد و يستحضر أحداث الماضي ، و هو المهيمن على الرواية ، ويليه **السرد الإستباقي** وهو بطبيعته تخيّلي ، ولئن كمنت طاقة الحريّة في التخيّل ؛ فهو يستشرف المستقبل ويتنبّأ بأحداثه بطريقة إعتيادية مثلما الحال في توقع مستو لمقتله عبر سرده لواقعة مقتل سيابند، أو بطريقة رمزيّة مثلما الحال في أحلام أمّ مستو التي إستبقت حادثة إعتقال زوجها صادق في أحد أحلامها وما أصاب مستو (لاحقا) في حلم آخر. ومن ثمّ تتضافر هذه الأنماط السرديّة في التشكيل السردي للرواية، و نتلمّس مهارة الكاتب وبراعته في توظيف عناصر البناء

السردي و وسائله المتشابكة ، التي لايمكن فصلها عن بعضها البعض إلاّ مجازاً و بعسر؛ من أجل دراستها، فثمة الشخصيّة (بتكوينها الفيزيقي والنفسي والفكري) باعتبارها من أهم عناصر الرواية ؛ لإرتباطها بالأحداث ومجمل الصراعات (الذاتيّة والموضوعيّة) و شخصيات (الرحيل الدّامي) مرسومة بدقة مشهودة ؛ بحيث نتحسّس وجودها ككائنات حيّة ذات ملامح خاصّة : فيزيقيّة و سايكولوجيّة وفكريّة، وهي تختلف فيما بينها بأفكارها وأقوالها وأفعالها، وهنا نشير إلى الحضور الساطع لسيابند ، رغم غيابه، وذلك عبر أمه وصادق ومستو وأعدائه، على سبيل المثال.

و من الملحوظ أن المونولوغ يطغى لدى الشخصيّة المأزومة (مثل مستو و خليفه خدر) حيث يكشف عن صراعاتها الباطنيّة وخباياها النفسية والفكريّة، في حين يكشف الديالوغ عموماً عن الصراعات بين الشخصيات كما الحال بين (محمود) و(سيابند)

فضلاً عن المضمون المهم لـ (الرحيل الدّامي) يستلفت شكلها الفني النظر بعنصريه: (الأسلوب) و(النسق) الذي يتحقق في الترتيب السردي الفني للمضمون ، وهو يشمل الراوي و المكان والزمان.

ولأننا تناولنا سالفاً رواة الرواية و شخصيّاتها؛ فقد وجبت الإشارة (الخاطفة و لو) إلى عناصر: المكان والزمان والحدث.

المكان في هذه الرواية (الواقعي ، أو المتخيّل ، أو المركب من كليهما) يُبنى بالوصف ، وهو وصف ذو وشائج بالوصّافين أنفسهم، وليس بوصفٍ جامد ، أي أن الأمكنة (الرئيسة والثانوية) الوارد ذكرها في الرواية ليست معزولة ، وإنما تقترن بشخصيات وأحداث كما الحال في وصف القرية ، وغرفة القيادي الحزبي محمود، من منظور مستو.

أمّا الزمان فليس في (الرحيل الدّامي) زمن موضوعي كرونولوجي (تسلسلي) وإنما يطغى عليها الزمن الذاتي السايكولوجي (النفسي) والذي طالما يرتكز على التذكر و التخيّل .

وأمّا الحدث (سواء أكان حقيقيّاً أو متخيّلاً) فلكونه أصلاً فعلاً ؛ فهو يقترن بزمن محدّد و يستند إلى حبكة، و ينفرز منه التوتر الدرامي ، ومن الأمثلة عليه: واقعة عرس صادق ، وواقعة ضياع القافلة وواقعة إستشهاد مستو.

وتعود أهميّة الأسلوب ، و هو جوهري يرتكز على اللغة التي تُروى بها القصّة ، تعود حسب تشخيص (يوسا) إلى كون : " الروايات مؤلفة من كلمات ، وهذا يعني أن طريقة الروائي في اختيار مفردات اللغة وصياغتها وترتيبها ، هي عامل حاسم في جعل قصصه تمتلك قوّة الإقناع أو تفتقر إليها، ولكن لايمكن للغة الروائيّة أن تكون مفصولة عمّا تقصه الرواية، أي عن الموضوع الذي يتجسّد في كلمات" (٤) ففي (الرحيل الدامي) تتبيّن أصالة أسلوب كاتبها المنفتح على توابل الأمثال والأقوال الشعبيّة الشائعة، واللاذعة خاصّة، بما تنطوي عليها من كنايات كرديّة وغير كرديّة ، ومنها(٥):

" يا من تجبن أمام الحمار وتستأسد على البرذعة!" / " أليس الكبير يسكب الماء؛ ثمّ يتزحلق الصغير...؟!"/ " فلابدّ أن ينجلي الليل مهما طال"/ " الخروف الذكر للذبح"/" إذا غاب العقل ؛ تشقى الروح " أي " الذي لايعرف تدابيره؛ حنطته تأكل شعيره" حسب القول الشعبي العراقي المأثور/ " إخش الماء الراكد"/ " ترعى مع الخرفان وتأكل مع الذئاب !"/ " فالموت موت ؛ فلماذا اللبط والرفس؟!"/ " المطحنة في خيال ، والطحّان في خيال آخر" ويعادله في الفولكلور العراقي:" عرب وين و طنبوره وين ؟!"/ " إنها نارنا الملتهبة لن نعطيعها للبنت الغريبة"/ " النار فاكهة الشتاء والبرغل علف الرجال!"/ " هاتوا قافلة تحمل أحزاني ويلاه......"/ " اللقلق مسكين ، لكنه يأكل الحيّة!"/ " ...فهو أثافي سبعة قدور!"/ و" في كلّ شعرة من لحيته ألف حيلة!"

ويتميّز أسلوب الكاتب بتكرار بضع (لازمات) تنشط السرد وتقوّي تماسك شكل الرواية، وتشحن إيقاعها بالديناميّة ، ومنها:

"هاهنا في أحضان هذا الوادي ، مازالت الشمس هي المؤشرة الرئيسة لمعرفة الوقت صباحاً ، ظهراً و مساءً..."/ " ها...إنه رجلك المصطفى ! قسماً

بالله يا خليفه تأكد بأن قافلة يقودها جاهل اخرق مثله ؛ لايستطيع مائة حكيم ونبيه إعادتها إلى سواء السبيل ، بل تسقط لا في هوّة ، بل في مائة هاوية حتى لو إنبسطت الأرض أمامها!"/ " إن البيشمركَه هو من أشعل الثورة العارمة في ذاته أوّلاً. إن البيشمركَايتي ، باختصار ، هي جوهر الثورة ولبّها؛ فالثورة تغيير ...تغيير في ميادين الحياة كلها..."/ " البيشمركَايتي محبة خالصة بلا رياء"/ " إن مصلحة الحزب فوق كلّ شيء. يجب على كلّ مخلص أن يذعن كليّاً لقرارات الحزب. فنحن نقتل حتى أعضاءنا؛ في سبيل الحفاظ على وحدة صفوف الحزب . هذا ما يتطلبه التنظيم الحديدي. أجلْ ؛ نقتله ، ثمّ نذرف عليه الدمع الهتون أمام أنظار الناس..."/ " هاتوا قافلة تحمل أحزاني ويلاه..." / و " أينما وجد العسف ؛ وجد البيشمركَه"

تتكوّن (الرحيل الدّامي)- في ترجمتها العربية- من قرابة (١٥٢١٠ كلمات) أي انها نوفيلا(رواية قصيرة) لكننا نعلم جيّداً أن الأهميّة الأدبيّة لاتقاس بطول أيّة رواية أو قصرها؛ فـ (المسخ) - أقصر روايات كافكا- ذات مكانة أهمّ من (القصر) التي هي أطول رواياته (٦) وحسب (الرحيل الدّامي) إنها رواية كرديّة بلحمتها وسداتها؛ فثمة مئات الألوف ، بل أكثر مثل شخصيّاتها بين ظهرانينا، وقد حدثت ومازالت تحدث الآلاف من أحداثها في كردستان، وهنا درءٌ لأيّ التباس ؛ آمل أن توضح الجولة السريعة الآتية مجريات الرواية:

في **الفصل** {١}/(٢١٣ كلمة) يستعيد **مستو** عبر **مونولوغ** ما جرى بينه وبين والده صادق ؛ إثر تصريحه بعزمه على الإلتحاق بالعمل الفدائي في جبال كردستان. ثمّ ينتقل السرد إلى (الراوي الملتبس) ليروي ما يدور بين والد مستو و والدته...

في **الفصل** {٢}/(٢١٨١ كلمة) يواصل (الراوي الملتبس) سرد مايجري بين صادق والد مستو ووالدته، وكيف انتوى والده التبرّأ من أبوّته له ، ثم يتولى صادق بنفسه مهمّة السرد ، مستذكراً عبر (فلاش باك) سنوات الماضي ؛ حيث يروي حلم زوجته (آته) ذا الدلالة ، حين كان مستو طفلاً صغيراً، وكيف تلته واقعة إعتقال صادق وتعذيبه والتحقيق معه من قبل أزلام الأمن العراقي ،

وصموده المشهود عبر الصمت رغم صنوف التعذيب النفسي والجسمي.
والملحوظ في هذا الفصل هو أن صادق دوغري يسرد ماجرى له وخاصة في واقعة الإعتقال بمونولوغ إسترجاعي وبطريقة (الإلتفات) أي مخاطبة الذات (الأنا) بضمير (أنت) وهي الطريقة التي تلازمه عموماً طوال فصول الرواية.
ويفلح الكاتب في تصوير آسر لمشهد حلم آته (أم مستو) و مشاهد الإعتقال والتعذيب بما فيها من أساليب الترغيب والترهيب ، وكذلك مشهد حلمه بالمهر بعد التعذيب خلال الإعتقال.
كان لإسترجاع واقعة إعتقال صادق في مقتبل عمره التأثير النفسي والفكري الحاسم في موقفه المناوىء لإلتحاق ابنه مستو بالعمل الفدائي: " لا، لا، لماذا أتبرّأ منه؟!" و " أتراك تجهل كونه من أبناء شعب محكوم ؟! ثمّ أتراك تجهل بأن أبناء الشعب المحكوم محكومون أن يصيروا بيشمركَه؟! ليت لساني بُتِرَ قبل النطق بتلك العبارة..." وهكذا نراه يذعن لقرار إبنه مستو ، الذي لايمكن تجاهل إصراره في التأثير على موقف والده.
في الفصل {٣}/(٢٣٠٥ كلمات) يروي مستو (بعد أن صار بيشمركَه) بطريقة الإلتفات كيف قصد ذات غسق إحدى القرى الكرديّة المحرّرة للإيواء ذات ليلة ، حيث يقدّم لمشارفها ولها مشهدا بانوراميّاً ، تتخلله تداعيّاته النفسيّة والذهنية، وتتطلع من خلاله على أهم المشاهد اليوميّة لأهالي القرية ، ألا وهو مشهد نبع الماء الذي تقصده النسوة والفتيات... وينقل مستو حواراً عاماً (جمله وعباراته منتقاة بذكاء) يدور بينهن ويكشف بصراحة جريئة عن بعض المسكوت عنه في تلك القرية بصفتها مجتمعا كرديّا مصغراً " وهناك تتصدّع رأسك من ضجة الأطفال وثرثرة النساء وقرقعة الصفائح والبراميل والشتائم وقهقهات الفتيات وحمحمات العوانس ، و مزحات وتلاسن النسوة، وأدعية ولعنات الزوجات الحانقات على أزواجهن..
- ليبتله الله بالعمى!
- شلّ لسانك
- بنت فاطمة المغناجة أراقت ماء وجهها!

- شبق فرجها خطف عقلها!
- هنيئاً لك يا(مينا) الحولاء
- يا (ملكيّة) تماديت في معاشرة(أحول)
- عين الحسود تبلى بالعمى!
- ليتك صرت زوجة أخي
- بالله عليكنّ إفسحن لي المجال فأنا مستعجلة..
- إنها محقة فثورها راجع !
- ليتني كنت مثلها!
- أعماك الله ! لماذا غمرت يدك في مائي، ألا تعلمين بأني سأغتسل به من الجنابات؟!
- وأنا أعلل نفسي أن لي زوجا، ليت الحمّى الصفراء فتكت بجسمه!
- و ماذا بقي منك يا شمطاء؟!"

ثمّ يروي مستو كيفيّة حلوله ضيفا طارئاً على بيت ميرزا إسماعيل، ومادار بينه وبين ميرزا من حديث يتعلّق بالبيشمركايتي ، من جهة ومادار من حديث بين خليفه خدر وميرزا عن (القافلة) وينتهي الفصل بمغادرته لبيت ميرزا، في ساعة متأخرة من المساء ؛ لينام في المسجد أسوة بالبيشمركه الآخرين ، وكانت هذه الحالة شائعة في القرى الكرديّة المحرّرة.

في الفصل {٤}/(١٧١٢ كلمة) يفتتحه الراوي الملتبس بوصف ما يعنيه صادق دوغري من ضيق و كرب سببه القلق على إبنه الفتى مستو الملتحق بالعمل الفدائي منذ فترة؛ إذ انقطعت أخباره ، ثم ينتقل السرد إلى صادق نفسه ، والذي يسترجع بطريقة الإلتفات وعبر (فلاش باك) قصة زواجه من(آته) حين كان بيشمركه في شبابه ، و هي قصة آسرة تشوّف القاريء مايتعلق بتقاليد وعادات الزواج في المجتمع الكردي (الريفي خاصة) وبعد استعادة ذكرى الزفاف ، يتحاور مع آته حول مستو، مذكراً إيّاها بليلة الزفة الأثيرة؛ فتقول له: " حسناً..إكراماً لذكرى تلك الليلة ؛ زرْ مستو" فيرضى ويقرّر : "...سأسارع غداً بالذهاب إليه.."

في **الفصل** {٥}/(٢٠٤١ كلمة) يروي مستو كيف أعاد البطانية التي إستعارها في الليلة البارحة من بيت ميرزا إسماعيل ، مع صرة النقود التي وجدها في طيّاتها؛ فتشكره (صبا) زوجة ميرزا مباركة فيه خصال البيشمركايتي . وبعد تناول الإفطار يتابع مستو سبيله ، حيث يخاطب نفسه: " حمداً لله مازلت بخير ؛ لم أنتن ، ولم تغزني رائحة النتانة بعد" ثمّ يستغرق في استذكار تداعيات إحدى المعارك التي نكص فيها البيشمركه، وكيف أن بعض البيشمركه نهبوا أغراض (أميد) المناصر لهم وكيف يرجو أميد عون المسؤول (سربست) الذي يردّ عليه بكل صفاقة: " أقول لك إذهب في سبيلك ؛ وإلا سأقبض على روحك أو ترديني شهيداً!"

وهذا هو أول مجابهة في الرواية بين الشخصيات السويّة والفاسدة في الحركة الكرديّة المسلحة.

وفي هذا الفصل نتعرف من خلال مونولوغ مديد لمستو إلى أحد أسوأ المسؤولين الفاسدين ، ألا وهو (محمود) الداهية الممارس لمبدأ "الغاية تبرّر الوسيلة" بلا وازع من ضمير ؛ متحجّجا بالإخلاص للحزب والشعب والوطن : " إن مصلحة الحزب فوق كلّ شيء. يجب على كلّ مخلص أن يذعن كليّا لقرارات الحزب. فنحن نقتل حتى أعضاءنا؛ في سبيل الحفاظ على وحدة صفوف الحزب . هذا ما يتطلبه التنظيم الحديدي. أجلْ ؛ نقتله ، ثمّ نذرف عليه الدمع الهتون أمام أنظار الناس..."!

ونعرف لاحقاً بأنه الرأس المخطط المدبّر لقتل البيشمركه سيابند و كذلك مستو. ثمّ يروي مستو قصة سيابند المغدور إستناداً إلى ما قصّه والده عليه.

في **الفصل** {٦}/(٧٢٥ كلمة) : يأخذ (الراوي الملتبس) زمام السرد ؛ فيوسّع التعريف بمحمود المسؤول المجرم وأزلامه و زبانيته السفلة الأوغاد، وعلاقته المجنسيّة بـ (بروانه) أخت (دلير) الديوث المقرّب إليه ، ثمّ تتراءى الخيوط الأولى لتآمرهم على البيشمركه المناعض لفسادهم سيابند.

في **الفصل** {٧}/(٣٠٠٤ كلمات): يصف (الراوي الملتبس) مشهد القرية المحرّرة و حيثيّات الجفوة المستديمة بين (الخال عزيز) و(خليفه خدر)

ويعرض الراوي عبر (خليفه..) محنة (القافلة) التائهة المفقودة، والجهود المبذولة سدى للعثور عليها؛ حيث يتبيّن في نهاية المطاف صواب رأي الخال عزيز وخطل إختيار (خليفه خدر) لحادي القافلة.

وفي خاتمة الفصل ينبري الشاب (جمال) القائد الجديد لكوكبة الفرسان الشباب للإعتراف بالحقيقة المرّة ، واتخاذ الموقف اللازم : " وفجأة توقف ليخاطب الشباب، حيث جاشت الدماء في عروقه، وكانت أوصاله ترتعش من الإنفعال، فهدر صوته:

- أيها الشباب ..لقد إنتهت أيضاً قافلتنا هذه!

فعلق الجميع بصوت واحد:

- إنتهت إذنْ

- ولكننا لانستطيع الإستمرار بدون قافلة!

- أجلْ لانستطيع الإستمرار ...لانستطيع العيش..

- فهلمّوا لنقرّر ألا نرقص بعد اليوم على طبل ومزمار كلّ من هبّ و دبّ ...أجلْ ؛ لنعرف منذ الآن فصاعداً أنفسنا حق المعرفة ؛ لكي نعرف الآخرين على حقيقتهم ، ثمّ إن الشجاعة في أن يعرف المرء نفسه، وقدراته ، وما في مقدوره ان يفعله ، وليس في أن ينخدع ، ثم يخدع الناس بسراب الأماني الخاوية والأهواء..وإذا لم يكن الراكب فارساً ؛ فسيصير عبئاً على الفرس ، و إذا لم يكن حادي القافلة أهلاً لقيادتها ؛ فسيتسبب في هلاك نفسه وضياع القافلة..."

في **الفصل** {٨}/(٦١١ كلمة): يطلعنا(الراوي الملتبس) على نص الرسالة الكيديّة ، التي ديّجها (سلام) أحد أزلام (محمود) للإيقاع بالبيشمركه سيابند ، ويحتوي النص على الحوار الدائر بينهما، ونستشف منه كون سيابند مثقفاً متأثرا بالفلسفة الوجوديّة في اتخاذ موقفه.

في **الفصل** {٩}/(١٩٠٩ كلمات): يستحضر مستو صورة (ميرم) أم سيابند المنكوبة المعذبة المخضرمة، ويقطع صوت صفارة إستذكاره ؛ إذ يتوجب عليه الإسراع مع البيشمركه الآخرين إلى نجدة رفاقهم الذين يخوضون معركة لصد

هجوم قوات من الجيش العراقي والجحوش الكرد، و يروي مستو خلال المسير في مونولوغ طويل ، وعبر تداعيّات ذاكرته شهادته عن إغتيال سيابند، مستعيدا تفاصيل الواقعة مع تداخلاتها وتقاطعاتها مع معطيات الحاضر المنذرة بمصيره الشبيه بمصير سيابند المغدور، لاسيّما وأن دلير الديوث أخلص أزلام محمود قد تسلح ببندقية برنو؛ لكي يبقى مع قوّة المؤخرة خلال المعركة، بينما على مستو حامل الكلاشينكوف أن يكون مع الصائلين في المقدمة، وفعلاً يتحقق هاجس مستو ؛ إذ يصاب من الخلف ويؤدّي جرحه البليغ إلى وفاته لاحقاً بعد اندحار العدو وعودة البيشمركَه إلى القرية، حيث يموت في مسجد القرية، بينما كانت جمهرة من الأهالي والبيشمركَه تتحلقه، بينها ميرزا والخال عزيز. ويدفن في مقبرة القرية نفسها. وفي هذا الفصل يتذكر مستو أمه الحبلى بمولود جديد.
وفي **الفصل الأخير{١٠}**/(٥٠٩ كلمات):
يشير(الراوي الملتبس) إلى مجيء صادق دوغري أبي مستو؛ لأخذ رفات مستو لدفنه من جديد في مقبرة مدينتهم، وسرعان ما يأخذ صادق زمام السرد بطريقة (الإلتفات) وتتبيّن لنا بأن غايته الحقيقية هي التأكد من جواب سؤاله المؤرق : هل كانت إصابة مستو من الأمام أم من الخلف؟! وللتيقن من الحقيقة يسأل إثنين من البيشمركَه من رفاق مستو اللذين يصاحبانه حتى مشارف المدينة:
" لي سؤال يؤرّقني ؛ فأرجو، و أستحلفكما بالله وكردستان أن تجيباني عنه بكل صراحة...هل كان مستو فتى جباناً يولي الدبر في المعارك؟
- كلا ، والله كان بطلاً مقداماً في كل المعارك ، بل كان في طليعة الصائلين..لكن لماذا سألت هذا السؤال؟!
فانطلقت منك تنهيدة عميقة حارقة: - لأنه أصيب من الخلف!"
لكن حدث مقتل مستو الشهيد المغدور لايمثل النهاية الحقيقيّة لهذه الرواية ، ففي هذا الفصل بالذات تتجلى سيرورة وصيرورة الحياة والنضال؛ حيث تروي آته أم مستو (الحبلى) حلمها الأخير المنذر بمصير مستو، وتطلب من زوجها صادق أن ينحر ذبيحة؛ نذراً لسلامتها بعد الولادة، وعندئذ يسألها صادق: " "

يا ترى ماذا نسمّي إبننا هذا يا آته؟" فتجيبه: " ليسمّيه مستو ..إذهب و زره ، وليجد إسماً جميلاً له" (.......) " سمّه أيضاً مستو"!

لقد تبيّن عبر العرض الخاطف السالف تولد بضع قصص أخرى ثانوية ذات علاقة بالقصة الرئيسة بالطريقة التي يشبهها يوسا بـ (العلبة الصينيّة) و ماتريوشكا(الدمية الروسية) (٧) حيث تتناسل القصص الفرعية عن الرئيسة ، والتي يتجسّد نموذجها الأبرز في (ألف ليلة وليلة) ففي الإطار العام للـ (الرحيل الدّامي) تطالعنا قصّة مستو(و هي الرئيسة رغم عدم احتلالها لمساحة كبيرة) وتتشابك معها قصة والده صادق متداخلة ومتقاطعة معها، و ثمة تنصهر فيها قصص (القافلة) و (محمود) و (سيابند) وهي مسرودة بإسنادها إلى مستو و والده ، وتمثل قصة مستو نقطة الإنطلاق ومحور الرواية ومركز السرد فيها ، وتليها في الأهمية قصة (القافلة) المترابطة جدليّاً مع قصّة مستو الرئيسة ، ثمّ قصّة (سيابند) التي لاتقل أهمية عن كلتيهما رغم كونها ثانوية. والملحوظ في (الرحيل الدّامي) هو (البناء المتوازي) لقصة القافلة الواقعة في الزمن الماضي (وهي ترمز إلى ثورة أيلول وانتكاستها ١٩٦١-١٩٧٥) مع قصّة الثورة الراهنة في الرواية (منذ ١٩٧٦) رغم عدم ورود أيّ ذكر لهذه التواريخ في الرواية.

ولا ندحة من إستعارة فقرات - بتصرّف من مقال سابق لي (٨) - تبيّن (الإلتزام الذاتي) للأديب والمترجم حمه كريم عارف في حراكه الثقافي على صعد كتابة القصة والمقال والدراسة والترجمة : يتبيّن لنا أن هذا الأديب ملتزم ذاتيّاً و أخلاقيّاً حتى النخاع و على الصعيدين القومي والإنساني ، خارج مدار أيّة ايديولوجيا ضيّقة؛ إذ أن " أولئك الذين يقرعون الأجراس ، لايساهمون في موكب الإحتفالات!" حسب تأكيد جان جاك روسو، ثمّ انه إذا كان شليگل قد رأى " ان المؤرّخ نبيّ يتطلّع إلى الماضي" فإن الأديب الفنان نبيّ يتطلع حتماً إلى المستقبل ، كما يتطلّع عبره إلى الحاضر، خلافاً للسياسي الذي يلتصق بالحاضر المحدود في أغلب الأحيان؛ و من هنا تنبع إشكاليّة العلاقة بينهما. وفي (الرحيل الدّامي) قد ساد "هذا القلق ، في مواجهة العالم الواقعي ، الذي

يثيره الأدب الجيّد في النفوس ، يمكن له ، في ظروف معيّنة ، أن يُترجم أيضاً إلى موقف تمرّد في مواجهة السّلطة ، أو المؤسّسات ، أو المعتقدات السائدة " حسب تعبير يوسا ؛ وهذا ممّا يجعلنا أن نردّد مع فاسلاف هافل : " يتحوّل البشر إلى قطيع من الأغنام ؛ في مجتمع يفقد القدرة على التلفظ بكلمة (لا) " ونضيف بأن الأدباء والفنانين يرتكبون أكبر خيانة؛ إذا ما ركزوا على تمجيد مناقب عصورهم و تجاهلوا مثالبه، مثلما تفاقم النفاق الثقافي في ظل الأنظمة الشيوعيّة والإشتراكيّة، التي إستمرأت النفاق السّام الذي ساهم أكبر الإسهام في حفر قبورها و دق المسامير في نعوشها...! وعليه فالصدق الصدق هو واجب الأدباء والفنانين ، من قبل ومن بعد ، حيث يجب عليهم سلخ القداسة عن كلّ ما هو زائف ؛ فـ " عار على من يغني و روما تحترق!" كما صرخ لامارتين ذات مرّة، وهنا تتجلى أهمية مقولة ماريو بارگاس يوسا:" وظيفة الأدب تكون تآمريّة دائماً"

لقد كتب القاص والمترجم والإعلامي حمه كريم عارف هذه الرواية قبل أكثر من ربع قرن ، وبالذات في تشرين الثاني / ١٩٨٦ في قرية (ياخسمر) المحرّرة حين كان في صفوف البيشمرگه (إذ أمضى تسع سنوات في خندق البيشمرگايتي) ولكنها نشرت على نطاق محدود في ١٩٨٨ بل أفتى بعض القادة الكرد اللاجئين آنذاك في مدينة (سقز) الإيرانيّة بحرق نسخها في قرية (قاسم رش) على الحدود العراقية الإيرانية في منطقة سردشت. ورغم ذلك فقد كانت مقروءة من قبل الصفوة المثقفة من البيشمرگه. وحظيت بالترجمة إلى الفارسيّة من قبل شايگان (أحد مثقفي الحركة المسلحة الإيرانية) في ١٩٨٧ ووزعت نسخها على نطاق محدود (قبل نشر نصّها الكردي) وقد ترجمها إلى العربية في ١٩٨٨ (فائز أبو شهاب) الذي كان شاباً عربيّاً موصليّا مثقفاً مستقلاً، إلتحق بالحركة الكرديّة المسلحة، ومن ثم هاجر إلى أوربا بعد أنفال ١٩٨٨ ولأن المترجم لم يكن يجيد ويتقن اللغة الكرديّة ؛ فقد إستعان بصورة كاملة بالترجمة التمهيديّة للمؤلف نفسه؛ فكان صنيعه في الحقيقة شبه ترجمة لما فيها من تصرّفات وحذوفات كثيرة (جمل ، عبارات ، فقرات وصفحات) لكنها مع ذلك

اتسمت بالريادة والتحدّي في تلك الظروف العصيبة، ناهيكم عن مقدّمتها الجيّدة ، والملحقة هنا (بعد التنقيح) بالرواية ؛ لأهميّتها الفكريّة.

صدرت لحدّ الآن ثلاث طبعات لـ (الرحيل الدامي) وقد جاء على الغلاف الأخير لطبعتها الأخيرة مايلي: " كانت الرحيل الدّامي كشفاً فنيّاً مبكراً للمرحلة التي كتبت فيها ونشرت. كانت صرخة، كانت نداءً وكانت خطاباً داعياً؛ لتغيير تكوين السلطة المسلحة ووضع الحركة التحرّرية آنذاك. إن مستو شخصيّة ذات بضعة أبعاد، فهناك غير مستو: واحد يراه ميرزا، وآخر يراه محمود الخبيث ، وآخر يرى الآخرين ؛ ولذا يظهر عبر أولئك في مخيال القارىء مستو متعدد الأبعاد. وتكتسب الشخصيات الأخرى وجودها الفني من خلال أناس آخرين ؛ فتُعرَف وتتجسّد في ذهن القارىء ومخياله" (٩)

وهنا لابدّ من الإشارة إلى رواية (نباح) للأديب الكردي الكبير محمد موكري، والتي صدرت أيضاً في (الجبل) في ١٩٨٦ فهي بمثابة شقيقة (الرحيل الدامي) في انتقاد إشكاليّات الحركة الكرديّة المسلحة والكشف الجسور عن المسكوت عنه، والتي أثارت أيضاً حفيظة و ردود فعل أكثر القادة السياسيين و المثقفين حدّ تدخل زعيم الإتحاد الوطني الكردستاني جلال طالباني وكتابة مقدمة لترجمتها العربية (ط ٢ في ١٩٩٨) !

و هكذا لا غرو في كلّ ما سلف عن (الرحيل الدامي) فهي تبرهن بمضمونها الجريء وبنائها الفني الراقي على ريادة القاص الكبير حمه كريم عارف في مضمار الرواية الكرديّة (الفنية)؛ فحين كتبها ونشرها وظهرت لها ترجمة عربيّة وأخرى فارسيّة، كانت الرواية الكرديّة (الفنية) ماتزال تحبو في أجزاء كردستان كلها، بل لم يكن عدد الروايات الكرديّة قد بلغ عدد أصابع اليدين ؛ وعليه فهي تعدّ إحدى الروايات الرائدة في تاريخ الرواية الكرديّة (الفنية) التي تعود إرهاصاتها إلى عشرينات القرن العشرين ، في حين شهدت الرواية الكردية نهضة كبيرة (عدداً و نوعاً) في تسعينات القرن العشرين والعقد الأول من القرن الحادي والعشرين ، في خضمّ المعطيات والمتغيّرات السياسية والإجتماعية والثقافية المشهودة.

وختاماً أقولها بأسى عميق أن ضعف حضور النقد الأدبي الحقيقي في المشهد الثقافي الكردستاني المعاصر قد تسبّب في سدول ستور التعتيم على الكثير من الإنجازات الثقافيّة الإبداعية ، ولنا في الإنجازات الغزيرة والنوعيّة للكاتب والمترجم الكبير حمه كريم عارف أسطع الأمثلة. فهو تولد ١٩٥١ كركوك ، ويحمل شهادة بكالوريوس في اللغة الكردية، ويترجم (عن اللغتين الفارسيّة والعربيّة) إلى اللغة الكرديّة ، وهو صحافي بارز في المشهد الثقافي الكردستاني المعاصر، وقد أتحف المكتبة الكرديّة بتآليف و تراجم تربو على التسعين كتاباً (نصفها لمْ يرَ النور بعد) ومن تآليفه: خمس مجموعات قصصية قصيرة و رواية (الرحيل الدامي) ومن ترجماته: نينا، رواية لثابت رحمن / الغريب لكامو/ الضحيّة لهيرب ميدو/ بعيد عن الوطن لقاسموف / الحرية أو الموت لكازانتزاكي / قصص صمد بهرنگي / قصص تشيخوف / قصص يلماز گوناي / فان كوخ لباول ايزلر/ يهودي مالطه لمالرو/ ريتشارد الثالث لشكسبير/ الجيران لأحمد محمود / قصص عزيز نسين / الإلياذه لهوميروس/ رواية لبزرك علوي / و الأوديسه لهوميروس...

و سبق لي أن ترجمت له مجموعة (ظلّ الصوت و قصص أخرى) الصادرة في ٢٠٠٥، كما شرّفني بموازرته في تصحيح و تدقيق و تقديم قاموسه الرائد والكبير (گوفند و زنار/ فارسي- كردي/ ١٢٠٠ صفحة من القطع الكبير) والصادر في ٢٠٠٦

إشارات:

(١) القصة العربية والحداثة/ د. صبري حافظ/ ١٩٩٠ بغداد/ص ١٨٨

(٢) رسائل إلى روائي شاب / ماريو بارغاس يوسا/ ترجمة: صالح علماني/ ط١ /٢٠٠٥ دار المدى للثقافة والنشر/ ص ٤٥.

(٣) المعجم الأدبي/ جبّور عبدالنور/ ط١٩٧٩/١ بيروت / ص ٩١

(٤) رسائل إلى روائي شاب/.......ص ٣٣

(٥) الجمل والعبارات والفقرات المستشهد بها مقتطفة من شتى صفحات رواية (الرحيل الدامي) في ترجمتها العربيَة(ج.ز.)

(٦) وهنا تجدر الإشارة أيضاً إلى الروايات القصيرة المهمة الآتية على سبيل المثال، لا الحصر: الأمير الصغير، انطوان دي سانت اكسوبري، ت: يوسف غصوب / الجلد، كورزيو مالابارته، ت: صلاح عبدالصبور / الصوت ، غابرييل اوكارا، ت: نزار مروّة / صاحب الفخامة الديناصور، خوزيه كاردوسو بيريس، ت: فاضل العزاوي / النورس ، ريتشارد باخ ، ت: عزة كبة/ الأمير إحتجاب ، هوشنك گلشيري ، ت : سليم عبدالأمير حمدان/ و تلك الرائحة، صنع الله ابراهيم

(٧) رسائل إلى روائي شاب/.......ص ٩٩

(٨) ظل الصّوت و قصص أخرى/ حمه كريم عارف/ تقديم وترجمة: جلال زنگابادي / مؤسسة الشفق ــ كركوك ٢٠٠٥/ ص ٦

(٩) كوجى سوور/ حمه كريم عارف/ جابى سييه م ٢٠٠٧/ له بلاوكراوه كانى جابخانه ى شفان ــ هه ولير

الرحيل الدامي

(١)

ـ " مازالت رائحة الحليب الخام تفوح من فمك يا بني ؛ فما شأنك بذاك الميدان؟! لاتستعجل ؛ فمشوار الحياة أمامك مازال طويلاً...وإذا ما أمهل الموت امرنا ؛ فسيأتي أيضاً دورك ، بل و دور أبنائك وأحفادك..."

كلما كان يتذكر كلمات أبيه السالفة ؛ كان يشعر بالطعن في رجولته ؛ ولذا كان يصرّ أكثر على إثبات رجولته وشهامته لأبيه ، بل لكلّ أب جبان على حدّ تعبيره.

ـ" إنك طفل...ما زلت طفلاً " لايكف أبي عن ترديد هذه العبارة، كما لو انني لمْ أفطم بعد! والله لأفعلنّ مالم يخطر ببال أحد ؛ بحيث يحوك كلّ شخص ملحمة لي !

ـ ...هذا الصبيّ الغرير؟!

ـ ليست الشجاعة والرجولة مرهونتين بالعمر.

ـ أهذا خلف صادق دوغري؟!

ـ ماشاء الله من حكمتك يا رب!

ـ وأيّة مثلبة لصادق دوغري ، وهو الرجل بمعنى الكلمة؟!

منذ اليوم الذي كاشف فيه أباه ، وأسرّ له بعزمه على الإلتحاق بصفوف البيشمركَه؛ وأبوه عابس متجهّم ، مابرح ينظر إليه شزراً، ويتشاجر مع أمّه:
- من العسير أن ينشأ صالحاً من رضع حليبك يا كلبة!
- دام ظلك يا رجل ؛ يا من تجبن أمام الحمار وتستأسد على البرذعة!
- كفاك تهذرين بالحمار والبرذعة..
- و ماذا إذنْ؟ أليس الكبير يسكب الماء؛ ثمّ يتزحلق الصغير...؟! وأنت نفسك هل فعلت القليل؟! طالما انتظرتك أمام الباب حتى الفجر، بل طالما تشققت قدماي على درب السجن!

(٢)

..نهض ومشى حتى باب الحوش. دسّ يده في جيب صدريّته. توقف برهة في مكانه، ثمّ نادى:
- آته! يا آته! هاتي لي حافظة نقودي الموجودة تحت وسادتي.
ألقت آته نظرة على أطفالها، وأخذت إليه الحافظه بسرعة، وناولتها زوجها مبتسمة بعذوبة:
- إلى أين تمضي في هذا المساء يا رجل ، وأنا أعد الحمّام؟
كان صادق رجلاً نحيفاً، ذا عينين واسعتين و حاجبين معقوفين كثّين ، وعلى خدّه خال كبير. وثمّة شعرات بيض شابت سواد شعره. إنحدر نحو السوق وئيد الخطى وكلمات أمسه تطنّ في أذنيه:
- سأتبرّأ منك! لن أحسبك إبني! أيّها الجاحد اللاأبالي طابور من الأطفال معلّق برقبتي ؛ فهل من العدل أنْ تتسبب في ...؟

***

كان طائر خياله يحلق عالياً مع انحدار الشمس إلى المغيب ، ثمّ يحطّ على الأيّام الخوالي..." كلّ وقت هو وقت الله" كان الوقت مساءً مثلما هو الآن . لم تكن آته حينذاك هزيلة الجسم كما هي الآن ؛ فقد كانت تفيض حيويّة ونشاطاً كظبية ، وكانت خصلات شعرها القطرانيّ تتلألأ وهي تعارك المرآة. لكمْ كانت سعيدة

ببيتها وحياتها! أجلْ ؛ كانت لاتكف عن الحلم ، وكانت في الصباحات عند تناول الفطور، وأثناء صبّها الشاي في الإستكانات ترفع رأسها بدلال وغنج :

ـ إنحر ذبيحة يا رجل...

ـ أهو حلم آخر جديد؟!

كانت آته ترفع عينيها شبه الخضراويين ، وتلعق شفتيها المكتنزتين بطرف لسانها:

ـ أمهلني لأقصّه عليك... رحمتك يا رب. إن شاء الله يكون فيه الخير. رأيت في حلمي كلينا وقد قصدنا ضفة نهير يجري ماؤه رقراقاً متلألئاً وهو ينحدر بعنفوان، وبعض مويجاته تحبو كالأطفال نحو الضفتين ، حيث تتلاشى ، فتتلوها مويجات أخرى وأخرى...بينما كنت تتلفت ناظراً يميناً ويساراً، ثمّ دنوت مني وقلت: " هكذا هي الحياة أيضاً يا آته تجري بين ضفتين" لكنني لم أفهم ما كنت تعنيه ؛ فغضبت ومسكت معصمي بقوّة، وسحبتني لنخوض النهير، حيث كانت الحصباء تتلألأ مشعة منعشة مثل البلكات في (يلك) وفجأة ندّت مني صرخة، وعدت القهقرى ، بينما بقيت أنت وسط الماء ، ورحت تقهقه ضاحكاً عليّ، وإذا بالماء يتعكّر بغتة ويفيض ؛ فصحت : " أنجُ من السيل... خلّصْ نفسك" لكنما الإضطراب غلبك ؛ فهرعت إلى الضفة الأخرى! وعندها إستيقظت على بكاء (مستو)

ـ خير إن شاء الله..كلّ هذا يا إمرأة ؛ لأنك تحشّين رأسك بالتخيّلات قبيل النوم! كأنما حدث توّاً ....! فذات مساء في مثل هذا الوقت ، بعد بضعة أيّام من حلم آته السالف ، إقتحمت زمرة من الأوباش بيتنا بغتة حتى دون طرق الباب ، وسأل أحدهم:

ـ أهذا هو بيت الأسطه صادق؟

ـ نعم، تفضلوا

ـ أهو أنت ..؟

ـ نعم

ـ هيّا إمش أمامنا

- لكن...
- بلا أيّما (لكن) و(ماكن) صنْ حرمة نفسك وسرْ بلا لغط
والتفت المتحدث إلى رجل أسمر ضخم بجنبه:
- كبّل يديه بالكلبجه(الجامعة) يا خلف
و هكذا إقتادك الأوغاد ، وتخيلت آته وهي تعول ، تولول وتلطم ، وتشدّ شعرها وتنتف خصلات منها؛ فاحتشد حواليها الجيران، وكانت تسمع بالكاد مايدور من كلام:
- يا للعار والشنار! أتبكين بحضور الأعداء؟!
- صبرك يا ابنتي ..فلابدّ أن ينجلي الليل مهما طال
- الخروف الذكر للذبح
- ولكن لماذا خروفي أنا بالذات يا عمّة خجي؟!
- صادق خروفنا جميعاً يا إبنتي
ومن الجهة الأخرى:
- هنيئاً ها هي العاقبة ؛ تمارس الكوردايتي ؟!
- السياسة مقامرة كبرى، لايقدر على ممارستها سوى القلة
- تنكسر الجرّة في الطريق إلى النبع
- ليصبه أكثر ؛ ما أشدّ ماكان ينظر إلينا شزراً ؛ كما لو إغتصبنا حق الكُرد!
- إذا غاب العقل ؛ تشقى الروح
***

إقتادوك وعند منعطف الزقاق عصبوا عينيك بوصلة، ثمّ صعّدوك إلى مؤخرة سيارة وهم يركلونك، ومدّدوك على أرضيّتها، وصفقوا بابها، وداسوا رأسك بأقدامهم . لقد عاملوك كما لايعامل حتى الكلب! ثمّ إنطلقت السيّارة كطلقة ، وكان رأسك يرتفع مرتطماً بسقفها في كلّ مطب. شعرت بحرقة في لسانك وأنت تطلق الآهات. أطفأ أحدهم سيگارته على خدّك . تمعّنت في الأمر بأنه من المؤكد ستبقى فترة طويلة هناك على أقل تقدير، حتى يندمل جرح خدك ، ويتسنى إخفاؤه، ومن سوء الحظ جروحك لاتندمل بسرعة.

ثمّ أنزلوك ؛ حالما علا صرير فرملة السيّارة، وجرجروك جرّ الذئب لحمل، وراحوا ينهالون عليك لكماً و ركلاً في أحد الدهاليز، وراحوا يتقاذفونك كالكرة ، فدخت وأصابك الدوار، وفجأة إذا بصوت يتردّد كأنه الرعد:

- أيّها السفلة ! من أمركم أن تعاملوه هكذا؟! يا من تلقيتم الخبز بلا تربية يا أوباش يا أوغاد! ألا ينبغي أن تتحلوا بقليل من الأدب ول؟ صحيح أن قتل الكافر عبادة، لكنما الجور حرام!

فكفوا عن ضربك وركلك

- حلوا عصابة عينيه

نفذوا الأمر فوراً صاغرين. فواجهت رجلاً احمر المحيّا ، حليق الشارب ، تنمّ عيناه الصغيرتان خلف نظارته عن مكر بليغ. تمعّن فيك مظهراً إشفاقه، ثمّ أغمض عينيه لحظة ، وهزّ رأسه مستنكراً وهو يقول:

- بئس ما تصرّف هؤلاء الأوباش مع الرجل! حقاً ان الإنصاف صفة حميدة للإنسان.

وبعدها شبّك كفه بكفك واصطحبك إلى إحدى الغرف، ودعاك للجلوس على كرسي، وقدّم لك سيگارة، سارع بنفسه بإشعالها!

وعندها تذكرت كلام الأستاذ (برزو): " لاتنخدعْ أبداً يا صادق ؛ كلّ كلمة مفيدة لهم هي نسمة عليلة تنعش أعمارهم الحافلة بالجرائم.."

- نحن نعرف يا أخي بأنك رجل وحيد وفقير وبسيط ؛ فما الداعي لتجلب المتاعب لنفسك؟!

كنت مطرق الرأس و جسمك وحده هناك.

ثمّ سعل وتابع على مهل:

- إننا نعرف كلّ شيء عنك ، لكن الأفضل لنا هو أن تخبرنا بلسانك ؛ فماذا تقول؟ مال ، نقود ، وظيفة ، راتب وكلّ ما تشتهيه نفسك بين يديك.

فرددت في نفسك: " هذا الأجر الهائل مقابل خدمة صغيرة أمر لايخلو قطعاً من سرّ!" و لذت بالصمت أصمّ أبكم ، كأنك لم تكن موجوداً هنالك. ثمّ غمغم

بصوت خفيض متبرّماً، وراح يذرع الغرفة جيئة وذهاباً، ثمّ توقف فجأة وهو يرنو إلى الباب:

- هات شاياً يا خلف

كان خلف طويلاً ضخماً مريعاً. دخل الغرفة حاملاً إستكانة شاي بدت كـ (دعبلة) بيده. ومكث في مكانه كأنه يستفسر : " لمن يا سيّدي؟" ثمّ وضعها على طبلة أمامك. واستعدّ مؤدّياً التحية العسكريّة، واستدار وغادر الغرفة.

أشعل الآمر سيكارة. تمعّن فيك ، ثمّ حوّل نظره إلى حذائه الملمّع حديثاً واستغرق في التفكير...ثمّ نقر بأصابعه البيض النحيلة بضع نقرات على طاولته:

- حسناً...لنعد إلى موضوعنا. أخي الطيّب لاترم بنفسك في التهلكة ؛ أخبرنا فقط بإسماء رفاقك ، ثمّ إذهب بسلام إلى بيتك وأهلك

أمّا أنت فقد كنت أصمّ أبكم. تطنّ أذناك بـ " كلّ حركة من شفتيك لصالحهم نسمة عليلة تنعش أعمارهم الحافلة بالجرائم..." و" قلْ : قسماً بالقرآن وبشرفي ألا أخون الكرد و كردستان"

ركل بمقدمة حذائه قدمك وتساءل:

- هم م م ...ماذا تقول الآن؟ لاتقلقْ ؛ سيكون الأمر طيّ الكتمان... وهل يجوز أن نقابل إحسانك بالإساءة لاسمح الله؟! هم م م ...يبدو أنك تحسب نفسك مغدوراً مظلوما!

واستدار وسحب درج مكتبه وأخرج ملفة ، وقال:

- هذه ملفتك الخاصة...هل أقرأ لك ما فيها؟ الإسم: صادق بكر، معروف بـ (الأسطه صادق كبابجي) محل السّكن: كركوك - محلة إمام قاسم....فهل أستمر، أم...؟

وأطبق الملفة، وقال:

- نحن نعلم بأنكم تجمعون التبرعات والأغطية والمعاطف ، وترسلونه إلى قطاع الطرق والسلابين ، ولنقل إكراماً لخاطرك إلى (المتمرّدين)...لأولئك الذين يدعون الثوريّة ! إنهم يا أخي زمرة من الأغوات إلتجأوا إلى الجبال

مدفوعين بمراميهم ومآربهم الأنانية ؛ للإخلال بأمن البلد وسيادته...أليس من الكفر أن يتطاولوا على ظل الله على الأرض؟! إنهم يشيعون الإضطراب في هذا البلد الآمن ، في هذه البقعة الشريفة! فماذا تقول أنت؟ إذا كانوا صادقين في دعوتهم ؛ فليأتوا إلى المدن ، وليشعلوا الثورة بكلّ ما في وسعهم ! مثلك أنت على سبيل المثال! حسناً دعنا من كلّ ذلك واعطنا إسم شخص واحد فقط من جماعتك ، وأنا أعدك وعد رجل لرجل ألاّ أدعه يُغْدَم ؛ إكراماً لخاطرك!

ثمّ توقف عن الكلام وتمعّن فيك ، واقترب منك على مهل، ثمّ نقر بسبّابته أرنبة أنفك ، وهو يقول:

- أتعرف من أكون؟ ماذا يسمّونني ؟ هه ...أبو مازن جزّار الأمن !

فقلت في نفسك: " خسئت يا رجل بماذا تتباهى؟!"

- في هذه الغرفة بالذات قصمت ظهور أقوى الرجال وأرسلتهم كالخرفان إلى المجزرة!

ورفع يده مؤشراً:

- هذا الصف إلى الإعدام، و هذا حكم عشر سنين بالسجن ، وذاك بعشرين سنة ...ولمْ يعترض احد بـ (لماذا؟)! فأنا ههنا الحكومة ! فماذا تقول الآن؟ أما زلت ممتنعاً عن الكلام؟ ربّما تحسبنا نفتري عليك لاسمح الله! وإذا كان الأمر كذلك ؛ فإن لي كراماتي التي كشفت بها عن خفايا كثيرة حتى الآن! ويبدو لي بأنك تود أن أستخدمها أيضاً معك ...صدّقني انها كرامات تجلل بالخزي كل مجرم !

كنت تخشى كثيراً هدوءه المصطنع...أجلْ ؛ إخش الماء الراكد ...لئلا يخدعك باللسان الأملس ، وكنت تريد أن تفعل شيئاً ما؛ لكي يغيّر طريقة تصرّفه معك ؛ لكي يستثير غضبك. وعندها تناهى صوت قادر الحلاق إلى أذنيك: " أسطه صادق..الصمت أعظم موقف أحياناً"

واستدار بسرعة على كعبه ، وسحب يدك:

- أنظرْ إلى تلك المرآة

كانت المرآة معلقة على يسار طاولته، وهي بطول قامة رجل.

وعندها غافلك واستدار راكلاً وجهك بكلّ ما أوتي من قوّة . سرى الخدر في وجهك، شعرت بحرارة عالية تلفحه ، وتساقطت بضع أسنان في فمك. وإذ نظرت في المرآة رأيت الدم النازف من فمك وأنفك مختلطاً مع دهان حذائه على ذقنك المبعوج، ثمّ لم تسمع سوى :

- تعالوا خذوا هذا الدنيء؛ كأنما القوّاد قد أقسم اليمين...

كان رأسك يطنّ طنيناً هائلاً، وأنت على وشك الإغماء : " قلْ: أقسم بالقرآن وبشرفي ألا أخون الكُرد وكردستان"

***

حين عدت إلى وعيك ، كانت أوصالك متصلبة كأنها مسبوكة. لايمكنك الإتيان بأيّة حركة ، واستغرقت في التفكير: ها قد حلّ اليوم الذي ينتظره (مينه زل)؛ سيذهب إلى آته ، ويغمرها بكلامه المعسول الطافح بالأكاذيب والأضاليل : " أختاه ! إطمئني ..لاتقلقي بإذن الله لن أدعك تعانين من غياب الأسطه صادق..حاولي فقط تدبير قليل من النقود..سألمّ شملكما خلال بضعة أيّام بإذن الله..إعتمدي عليّ...يكفي قليل من الصبر؛ وستنفرج الغمّة ويزول الضيق...ما عليك سوى أن تدبّري لي بعض النقود..."

تبّاً لك يا مينه زل ..يا دنيء! كأنه بوم؛ ما إن يدخل بيتاً ؛ حتى يصيبه الخراب. لطالما رفعنا عنه التقارير: " إحذروا هذا الشخص فهو موضع الشك والريبة ! ليس مستقيماً في سلوكه وتصرّفاته" لكن الرفاق لم يأخذوا التحذير في الحسبان: " إننا مطلعون على كلّ شيء ، لكن الحزب بحاجة أيضاً إلى أشخاص مثله"

إلهي ليت العقل ينجد آته ؛ فتطرد ذلك السافل. عهدي بآته إنها واعية.

هيّا يا آته ، كحلّتك وجملتك ، لاتستحي وخاطبيه : " أما تستحي أيها الرجل الضخم ؛ من أين أجلب النقود؟ لو حقاً متعاطفاً معنا و أخاً طيّباً! أهكذا كنت تعينني؟! لقد رافقك صادق وأصدقاؤه ؛ فثقلت أعباؤهم هكذا...ودفع الجميع الضريبة الباهظة ، بينما تفلت دوماً وتتفرّج ...ترعى مع الخرفان وتأكل مع

الذئاب ! إذا كان صادق رجلاً؛ فأمره بيده هو...هيّا إغرب عن وجهي أيها القبيح المنحوس الوجه..

***

بغتة إنتفضت على صوت اصطفاق الباب، حيث دخل بضعة من الشرطة الغرفة لاهثين، وأمسكوا برجليك ويديك وحملوك وجرجروك كجثة، وكلما كانت ترتخي أياديهم؛ كان جسمك ينشحط بالأرض، فكانوا يركلونك ويسحبونك سحباً...حتى الوصول إلى ممرّ دهليز مظلم...حيث تنتظر الكلاب ، ففي الدهليز كان يتردّد صوت كلبين يشي بالشراسة كأنما جوّعا فترة ، حيث كان صوتهما يزداد ضراوة؛ كلما قرّبوك منهما ... فكدت تفقد صوابك: " إنهم جائون بتقديمي فريسة سهلة لهما...سيمزقانني إرباً إربا!"

- هل ستتكلم أم لا؟

" بعد كلّ هذا الإمتهان للكرامة؛ (كلا) إيّاك أن تنطق بكلمة ؛ حتى لو مت ، فالموت موت ؛ فلماذا اللبط والرفس؟!"

همس أحدهم في أذنك:

- لاعليك، سأذهب إلى البيك وأقول له: إنه تعبان جداً..سيرتاح قليلاً؛ ثمّ سيبوح لنا بكلّ شيء من تلقاء ذاته.

لقد تبيّن لك بأنها مجرّد خدعة مسجّلة ؛ فليس ثمة أيّ كلب، والأمر كله تمثيل في تمثيل! فليطمئن بالك بعد الآن . فقد صلبت شوكتك ، واكتشفت ألاعيبهم ؛ فأنا أصمّ أبكم ولا أعرف أيّ شيء"

فجأةً تناهى إلى مسمعك صوت صافرة في الممر، ثمّ حملوك بسرعة وطرحوك بكل عنف على أرض الغرفة. وبعد مضيّ بضع دقائق ، شعرت بتملّ في أوصالك ، وكنت تشعر بأنك معرّى ، وكانت أوصالك ترتعد أحياناً، مع ومضات وجع حادّ يخترق قلبك و...دون أن تعلم كم مضى من الوقت ، إنتفضت من النوم كمخبول ، وتمعّنت في الظلام ، فلم ترَ أيّ حصان! إذنْ..كان ذلك حلماً ، حيث شاهدت أمام بيتكم مهراً منساب العرف ، أغرّ الجبهة ،

مسربلاً بالغربة ، يحكّ خطمه ببابكم ملولاً. وإذا بأمّه تهرع وقد إنحنت قامتها الفارعة قليلاً وتعتّمت مرآة وجهها قليلاً ، وفتحت الباب :
- وَيْ وَيْ لهذا المهر! ياترى مهر من في هذا الليل...؟!
وانتهرته باستياء ؛ فانتصبت أذناه و هزّ ذيله، وانطلق يعدو حتى طرف الزقاق ، حيث توقف ، وأرسل نظرة طافحة بالغربة وراءه، وما لبث أن عاد ليقف أمام بابكم مثلما فعل من قبل ؛ فنهرته أمّه ساخطة:
- إغرب عنا ، أكلت رأسك صاحبك! لمْ ينقصنا إلا هذا! كأنه جدي (ربيطة)!
فاجتاحك حنق شديد ، وتمنيت لو يعود مرّة أخرى ، فتهرع إليه وتمسك به.
وفجأة جفلت إثر اصطفاق باب الغرفة. كنت مصدوعاً و دائخاً ، وعيناك شبه غائمتين. كان الرجل الأحمر وبضعة أوباش واقفين حواليك . لقد ركلك الحقير بمقدمة حذائه باشمئزاز وكأنه تحاشى اتساخ حذائه:
- ها...كاك صادق ! ما قولك الآن؟ أتراك تعقلت وثبت إلى رشدك..أم ...؟
كنت معتصماً بالصمت بحيث ظننت نفسك فاقداً القدرة على النطق.
- خلف ! سنخصص اليوم للتمتع ؛ فاذهب واجلب زوجته العاهرة. ستصطفون جميعاً وتغتصبونها واحداً تلو الآخر.
و حالما تفوّه بهذه الجمل ؛ إنفكت عقدة لسانك كأخرس حقيقي إثر صدمة هائلة:
- لطفاً ضعوني أيضاً في الصف !

***

لمّا رفع صادق رأسه كان قد بلغ أمام محل قادر الحلاق ، فلوّح بيده محيياً إيّاه ، ثمّ عاد أدراجه إلى البيت مسرعاً.
- لا،لا، لماذا أتبرّأ منه؟! لماذا أحرمه من أبوّتي ..؟ أتراك تجهل كونه من أبناء شعب محكوم ؟! ثمّ أتراك تجهل بأن أبناء الشعب المحكوم محكومون أن يصيروا بيشمركه؟! ليت لساني بُتِرَ قبل النطق بتلك العبارة...لا أحد يقطع على نفسه سبيل الخير، وإلا فإن إبني متعلق جدّاً بدراسته...لعلّ و عسى...

(٣)

حين يرى الإنسان مكاناً ما لأول مرّة ؛ يتمعّن فيه بدقة، حيث تسترعي أصغر الأشياء إنتباهه، ثمّ تظل معالم ذلك المكان مسطورة على صفحات ذاكرته لفترة طويلة. أمّا إذا ما تواشجت ذكرى بهيجة أو مريرة مع مناظر ذلك المكان ومعالمه؛ فربّما لن تنمحي أبداً من ذاكرته.

هاهنا في أحضان هذا الوادي ، مازالت الشمس هي المؤشرة الرئيسة لمعرفة الوقت صباحاً ، ظهراً و مساءً...

- ألمْ يحن وقت الصلاة يا خال عزيز؟

- ليس بعد. حين يصل الظل أعلى غصن من شجرة التوت ؛ يحين موعد صلاة الظهر.

حينما ينصب الليل خيمته ؛ يبدو الجبلان الواقعان على جانبيّ القرية كأنهما يتلاحمان ويحتضنانها ليحميانها من براثن الجائرين...لاأحد يعرف أعمار الجبال ؛ فهي قديمة جداً، قد تكون أخلد الشهود على المآسي والفجائع والملاحم

البطولية في الوقت نفسه..ثمّة أحجار عملاقة غارزة مخالبها في صدور الجبال، عجزت حتى العواصف والأعاصير والأمطار والسيول ، بل حتى القنابل أن تزعزعها وتطوّح بها بعيداً عن أحضان سفوح الجبال! كانت هناك أجمة من أشجار البلوط القصيرة المشذبة بالفؤوس منتصبة أمامه ، وكان بعضها قد تعرّض لعنف ضربات الفؤوس ؛ لتستحيل وقوداً للمدافيء، أو فحماً منعشاً لحركة البيع والشراء في إحدى الأسواق لبضع ساعات. وإذا ما قصدت القرية بعد الغروب ؛ فليس هناك مايدلك سواء السبيل سوى نباح كلب أو ضوء خافت مرتعش لقنديل ما. أمّا إذا كان الضباب مسربلاً القرية والجوّ بارداً؛ فإن الأدخنة المتصاعدة من مداخن المدافيء الخشبية تكثف الضباب.

على هذا الجانب في قدمات الجبل مقبرة على إحدى الروابي تثير في نفس العابر ألف تخيّل بلاقرار. أمّا إذا ألقيت نظرة من مستوى أفق هذا الجانب ؛ فتبدو القرية لك كتلاً متشابكة بعشوائية وفوضى ، بل أشبه ماتكون بأطلال قلعة قديمة، حيث يبدو فيها كلّ شيء ساكناً خامداً وهامداً. وقبل أن تبلغ القرية تصادف عند مشارفها نبعاً شحيح الماء، يتعسّر عليك أن تشرب جرعة من مائه أو تبلل وجهك لكثرة الطحالب فيه، وإذا ما غمرت فيه يديك ؛ سترى مئات الدعاميص ذات الأذناب الهزازة تهرع لائذة بالطحالب ، والضفادع المقززة تتقافز من بين قدميك لائذة بالفرار.

وهنالك في أسفل القرية جدول شتوي الجريان. فإذا كان الشتاء مطيراً ؛ فالماء يجري فيه عدة أشهر، ثمّ يجف ، حيث تنتصب على ضفتيه شجيرات بريّة لاجدوى منها كاليتامى سرعان ما ييبّسها القيظ ، أمّا المقاومة منها فتقضي عليها الأبقار والماعز وغيرها...وعلى مدار السنة لايخلو الجدول من جثة حمار أو بغل أو عجل أو بقرة ، حيث يرى المرء زمرة من الكلاب تتحلقها بعد الشبع حتى التخمة أو تدسّ رؤوسها فيها وذيولها تتحرك بين سيقانها...

وابتداءاً من نهاية سفح الجبل ثمة سلسلة من الربوات الصغيرة تنحدر كالموجات حتى مشارف القرية، وما بينها هنا وهناك مساحات مستوية تتخللها حقول صغيرة للخضراوات ، وثمة دريبات تبدو كالخيوط تنحدر وتصعد من

وعلى سفوح هذه الربوات . وحين ينال التعب منك وتجلس على سفح إحدى تلك الربوات وتشعل سيكّارة ، ثمّ تتطلع إلى السماء؛ فغالباً ما ترى عيناك نسراً يشق عنان السماء، أو باشقاً متعلقاً بالفضاء، حيث يعلو ويدور دورات من حين لآخر، و تتسع دوراته ؛ كلما حلّق أعلى ، ثمّ يواصل الإرتفاع حتى يستحيل مجرّد نقطة صغيرة على صدر السماء، لكنه يطبق جناحيه فجأة ويهوي بسرعة هائلة منقضاً على إحدى القمم ؛ فتحسّ كأنما هنالك قوّة خفيّة تجتذبه إلى الأسفل. ثمّ تراه سرعان ما يعود محلقاً إلى العلياء ، وقد علق ريش أو وبر أو جلد بمخالبه.

وبعد ارتواء عينيك من التطلع إلى السماء، وبعد أن تنهي تدخين سيكّارتك، وتهمّ بالنهوض لمواصلة السير، تشعر بانقباض قلبك ؛ حيث يضيق الوادي معسّراً تنفسك ، وتشعر بمجال تفكيرك يضيق أيضاً ؛ فتتمنى بكل كيانك أن تستحيل باشقاً ، وتحلق بكل قواك في أعالي السماء نائياً عن هذا الوادي المجدب ، لكنما القرية تناديك وتهبّ عليك رائحة العمران رأسك. وهل ثمة رائحة أزكى من رائحة العمران؟! إن سحر العمران يجتذب المرء من بعيد ..لقد كان الماء والعمران متلازمين دوماً ، رغم شحّة مياه هذه القرية...

لكي تصل وسط القرية؛ لابدّ من المرور بالنبع الذي تقصده النسوة والفتيات اللواتي يتقاطرن مسرعات من الأزقة للتزوّد بالماء. وهناك تتصدّع رأسك من ضجة الأطفال وثرثرة النساء وقرقعة الصفائح والبراميل والشتائم وقهقهات الفتيات وحمحمات العوانس ، و مزحات وتلاسن النسوة، وأدعية ولعنات الزوجات الحانقات على أزواجهن..

- ليبتله الله بالعمى!
- شلّ لسانك
- بنت فاطمة المغناجة أراقت ماء وجهها!
- شبق فرجها خطف عقلها!
- هنيئاً لك يا(مينا) الحولاء
- يا (ملكيّة) تماديت في معاشرة(أحول)

- عين الحسود تبلى بالعمى!

- ليتك صرت زوجة أخي

- بالله عليكنّ إفسحن لي المجال فأنا مستعجلة..

- إنها محقة فثورها راجع !

- ليتني كنت مثلها!

- أعماك الله ! لماذا غمرت يدك في مائي، ألا تعلمين بأني سأغتسل به من الجنابات؟!

- وأنا أعلل نفسي أن لي زوجاً، ليت الحمّى الصفراء فتكت بجسمه!

- و ماذا بقي منك يا شمطاء؟!

واعجباه! إن العمر والزمن يمضيان من حيث لاتشعر بهما ، وكل تلك المشاهد تتراءى بجلاء لناظريّ لحدّ الآن...ليلاً كانت الرياح تندسّ بصفيرها بين أغصان وفروع الأشجار والشجيرات، وأخذت زخات المطر تساقط ، فنفذت رائحة الثرى المتبلل إلى رأسي، فغمرتني بنشوة تضاهي النشوة التي تبعثها رائحة حسناء شهوانيّة مغناجة ؛ فتبيّن لي ليلتذاك أن تينك الرائحتين ، رائحة الثرى المندى بالمطر حديثاً و رائحة المرأة ، أزليّتان لن تبليا أبداً. ثمّ ماذا عن كلّ تلك الهمسات والغمغمات والهمهمات الصادرة عن أحضان الليل؟! ياه! ما هو صوت الليل؟ يا له من صوت عسير الوصف ، بل لايمكن وصفه بتاتـاً، فهو يحتضن آلاف الهواجس والوساوس والإرتعاشات والعذابات والرغبات والغربة والألفة والكركرات والقهقهات والخوف والآمال والآهات والأنات والزفرات والإعياء والإرتياح والقلق والطمأنينة وثغاء الحيوانات الجبلية وزقزقة وهديل الطيور الضالة الباحثة عن أعشاشها...والقمم والسفوح والسهول والأصوات والأصداء يحتضنها الليل كلها ويهدهدها كأعز بنيه ...لاأعتقد بوجود ملاذ للأسرار كمثل الليل.

وليلتئذ كنا أنا وأسرة ميرزا اسماعيل إضافة أخرى إلى أسرار الليل!

مثل شبح متعب القدمين إستوقفني باب عتيق لحوش ذي سياج منخفض ، ورحت أختلس النظر والسمع هنا وهناك ؛ لعلني أرى وأسمع حركة ، ضوءاً

..صوتاً...لكنني لم أسمع سوى نخير وخنين الأبقار المحلوبة حديثاً وهي تجتر علفها. وبعدها تناهت أزيز زيت على النار إلى سمعي ، ولايستطيع الجائع مقاومة رائحة زيت القلي ، ومن حسن الحظ أن القرويين الكرد يتناولون العشاء متأخرين ، بل يرحبون بأيّ عابر سبيل يطرق بابهم ، فكيف الحال مع الضيف؟ فتشجّعت وطرقت الباب :

- يا أهل الدار!

فبدا طيف من شق الباب العلوي متسائلاً بصوت رقيق:

- من ؟

- أنا..يا أختاه..أ تستقبلون الضيف؟

- تفضل يا أخ ..الضيف حبيب الله.

تريثت قليلاً قبل أن تقول بصوت أصفى وأرق:

- مهلا حتى آتي بفانوس ؛ فالحوش مظلم

- لاتتعبي نفسك ؛ فمعي مصباح يدوي

وارتقيت السلم الخشبي المتداعي بكامل عدتي وعتادي وبندقيتي. ومايزال صرير السلم يتردد في تلافيف ذاكرتي. لقد كنت منهك القوى ، وكانت ثيابي مبتلة قليلاً.

- منذ زمن وأنا أقول لرجلي :" أصلح هذا السلم الموروث ببضعة مسامير يا ميرزا"

وفتحت الباب:

- تفضلْ يا أخ ..تفضل بالدخول

ودخلت الغرفة والشعور بالخجل يغشاني :

- السلام عليكم

نهض عن الخوان رجل متوسط العمر، ضامر الوجه ،وسيع العينين ومعقوف الأنف:

- وعليكم السلام..أهلا وسهلا..تفضلْ تفضلْ..

فوضعت بندقيّتي جانبا ، وأخرجت منديلي من جيبي ومسحتها، ثمّ جلست قرب الخوان، وقد أسالت رائحة (اللبنيّة) لعابي...

- أهلاً ومرحبا بك

إبتلعت لعابي :

- سلمك الله عشت

- هيّا يا (صبا) هاتي الطعام

كانت صبا إمرأة تفيض بالحيويّة. كان شعرها مخضباً بالحناء. وكانت ضامرة الخدّين قليلاً وذات عينين متألقتين. فخرجت ، ثمّ عادت بعد هنيهات جالبة صحناً من اللبنيّة الساخنة المزيّنة وبصلة على صينيّة، و وضعتها أمامي وقالت:

- تفضل

- والآن يا صبا ضعي حزمة حطب في المدفأة

وبعد تناول العشاء وشرب الشاي ، إلتمست الدفء والراحة، وجففت ثيابي ، وأوشكت على القول: " من فضلكم أعطوني بطانيّة..سأذهب لأنام في المسجد" فسبقني ميرزا كأنه فطن إلى مايدور في خلدي:

- إيه..يا أخانا البيشمركه ! أراك تتعجّل الإنصراف...مازال الوقت مبكراً. إبق لندردش قليلاً ونفرّج عن قلوبنا.

لمْ تكنْ لديّ طاقة للكلام ؛ فلذت بالصمت ، ورددت في سرّي: " حان أن تدفع الثمن ! مادمت قد تناولت لقمة طعام ؛ وجب عليك أن تدفع الضريبة! أيّة دردشة سلمك الله؟! ولكنْ لمَ لا؟! فلينصبْ عليّ الليلة إضطهاد هذا الرجل ، ولأستمعْ إليه ، ثمّ ليس شرطا أن أصغي إليه بجد ، فلولا هذه العلاقات الإجتماعيّة الباهتة ؛ لضاق الإنسان ذرعاً بوجوده...ومن المحاسن أن تبعث هذه العلاقات الواهية أحياناً بهجة خرقاء في نفس الإنسان ، وتشغله أو ينشغل بها عن نفسه ، أو يفرض وحدته عنوة على شخص آخر"

- هيّا يا امرأة صبّي لنا الشاي ثانية

ثمّ وضع استكان شاي أمامي وآخر لنفسه. خبط شايه ؛ فاستثارني رنين احتكاك ملعقته بالإستكان...وإذا بصوت غليظ أجش يتناهي من الخارج:
- ميرزا هل أنت في البيت؟
- هلمّي يا امرأة شوفي من هو؟
عبست صبا وغمغمت متذمّرة وأجابت بهدوء:
- ومن يكون غير (اللاخليفه)؟!
وخرجت من الغرفة لتستقبله:
- أهو أنت يا سيّد خليفه؟! تفضل أدخل ..ميرزا موجود
فدخل الغرفة..رجل بطين ، عريض اللحية. و سدى ألحّ عليه ميرزا ليتصدّر المجلس ؛ فقد قرفص قرب باب الغرفة:
- هذا غير مناسب يا خليفه ؛ فكن رجلاً طيّباً وتصدّر المجلس
- سلمك الله يا ميرزا لابأس ، ولكن عيل صبري ؛ فقد حان وقت عودة القافلة، ولكنْ لاأثر لهم...أخشى أن.......فماذا نفعل في رأيك؟
ألقى ميرزا عليّ نظرة ، وهو يفكر، ثمّ قال:
- من يقود القافلة؟
- شيخه إبن كاكه شيخ
- ها...إنه رجلك المصطفى ! قسماً بالله يا خليفه تأكد بأن قافلة يقودها جاهل اخرق مثله ؛ لايستطيع مائة حكيم ونبيه إعادتها إلى سواء السبيل ، بل تسقط لا في هوّة ، بل في مائة هاوية حتى لو إنبسطت الأرض أمامها! حتى الآن لم تقيموا لرأينا أيّ وزن... لقد كنا بمثابة شهود لاأكثر...لأنكم لاتتذكروننا إلا إذا حاقت بكم النائبات...والآن ليذهب المتنعّم بخيرات القافلة للبحث عنها...فمنذ أن وجدت كانت خيراتها من نصيبكم ...أمّا نحن فكنا مجرّد خدم منبوذين نرمقكم جاحظيّ العيون ، لا ناقة لنا ولا جمل ...زرعنا الكثير ولم نحصد غير الشوك! فإنْ كان بدافع الشهامة ؛ فكفى ، وإن كان بدافع الغباء فكفى أيضاً...!
وإذا بصوت والدي يرنّ في ذاكرتي: " لقد ساهمنا يابني بنصيبنا في القافلة ؛ فعمك أحد شهداء القافلة البارزين...من ذا لايترحّم على (عزيز دوغري) ولا

يذكره بالخير؛ كلما ورد ذكره؟!" و لو كنت أجيبه : " إن مافعله يخصته هو، كفاك تعتاش على حساب الموتى ، وتنبش الدفاتر العتيقة ؛ فذلك من علامات الإفلاس ! فلا أحد يعبر النهر بسباحة سواه ! ألف (لكن) لمن دسّ هذه الإسطوانة في أدمغتكم " لو كنت أجبته هكذا؛ لخاصمني ، وردّد : " خضت ألف محنة لأربّي هذا الولد وإذا به يجازيني هكذا!!"

نهض خليفه ومضى مستاءً . إرتشف ميرزا شايه، ودفع الإستكان نحو صبا:

- صبّي لنا الشاي من جديد يا امرأة

ألقى عليّ نظرة وشهق شهقة عميقة ثمّ قال:

- أتعرف يا أخانا البيشمركه أن البيشمركايتي (العمل الفدائي) عبادة خالصة بلا رياء؟!

تساءلت على مضض:

- كيف؟

تنحنح قليلاً وتابع كلامه:

- مثلما تكون العبادة وشيجة وثقى بين العبد والله وعشقاً خالصاً بلا رياء، تكون الفدائيّة عشقاً نزيهاً زكيّاً للأرض والحريّة والشعب. إن البيشمركه مدلل الناس والأرض ؛ فالأرض بلا بيشمركه مثل بستان بلا سور! ويل للناس والأرض التي تخلو من البيشمركه! البيشمركه هو من يريق دمه عند أقدام الناس والأرض ، ويستحيل وردة يفوح شذاها دوماً ، دون انتظار جزاء أو ثناء.

كنت منقبض النفس و في غاية الضجر؛ وقد عجزت حتى كلمات ميرزا الشيّقة أن تهزّني ، أجلْ ..فـ " المطحنة في خيال ، والطحّان في خيال آخر"! لقد شعرت أن كلماته وليدة ذهن محشو حشواً، وليست وليدة ذهن متفتح مبتكر. وإذ رفعت رأسي ، كانت عينا صبا السوداوان العميقتان تحطّان عليّ ، كأنها تشفق عليّ ، بينما كان ميرزا يبدو توّاقاً إلى الحديث، فابتسم لي واستأنف :

- فما رأيك يا صاح؟

- لاأدري ماذا أقول..فأنا أحسب نفسي بيشمركه (فدائيّاً) ، وليت كلّ الناس يقيّمون البيشمركه مثلك.

- لاتبال..سيأتي ذلك اليوم...
- لكن يا عزيزي ميرزا يجب أن تكون البيشمركايتي (الفدائيّة) في إطار الثورة ؛ وإلا...
فقاطعني:
- أ ليست الثورة قائمة عندنا والحمد لله؟!
سكتت برهة ، ثمّ قلت:
- و لكن يا ميرزا العزيز ليس كلّ من حمل السلاح ببيشمركه ...صدّقني أن أكثرنا فزاعات عليها البنادق معلقة! إن البيشمركه هو من أشعل الثورة العارمة في ذاته أوّلاً. إن البيشمركايتي ، باختصار ، هي جوهر الثورة ولبّها؛ فالثورة تغيير ...تغيير في ميادين الحياة كلها... أمّا ما تحمد الله عليه فهو الإقتتال ...شبه حركة مسلحة. صحيح إننا نخوض معرك بطوليّة ، ولكنْ إعلمْ بأننا نقاتل منذ أن وجدنا، فإذا لمْ نحوّلْ هذا (القتال) إلى(ثورة)؛ سنظلّ على هذا الحال نقاتل ولا نغيّر ولا نحقق شيئاً؛ لذا وجب علينا التفكير في أن نحوّل القتال إلى ثورة، وقتالنا العادل قريب من الثورة ، لحسن الحظ، ويمكن بلوغ مرحلة الثورة؛ إذا بذلنا الجهود ..وعندنا أناس ثوريّون ، لكنهم للأسف لمْ يتجمّعوا ويتحدوا بعد تحت خيمة ثورة...ويجب أن تنطبع حركتنا بطابع الكادحين، وأنْ نحذّر من البرجوازيين؛ لأن من شيمة البرجوازيين في العالم قاطبة ان يمضوا شوطاً أو شوطين ، ثمّ ينحرفون عن الطريق ، بحيث تغدو الثورة مصدر خشية وتهديد لهم!
بدا ميرزا وكأنه لمْ يفقه جيّداً ما طرحته ؛ فتثاءب وقال:
- الله كريم!
والتفت إلى زوجته:
- يا امرأة هاتي البطانيّة الجديدة لأخينا؛ فهو يبدو متعباً وينوي الإنصراف.
لملمت نفسي وتنكبت بندقيّتي وتناولت البطانيّة، و حييتهم " تصبحون على خير" واتخذت طريقي إلى المسجد...كان وبر البطانية الوثيرة تحت إبطي يدغدغني..وأنا أحدث نفسي: " إني أفهمك يا ميرزا..أعرف مقصدك..صحيح أن

البيشمركَايتي عبادة، ولكنك لاتدرك في أية حمأة آسنة نتمرّغ! حمأة تعج باللصوص والأفاقين والمهسرّجين والمتطفلين والمشعوذين والمداهنين والمقاولين والتافهين والمرائين والسياسيين التجار المحترفين ! أما ترى النيران تحدق بنا من كلّ صوب ؛ إذا بقينا ماكثين في المستنقع وتغزونا الرائحة النتنة شيئاً فشيئاً، وإذا ما إخترقنا الطوق خارجين ؛ فنصير طعماً للنيران؟! فماذا نفعل يا ميرزا؟ لابدّ ، كما يقول الأستاذ محمد، أن نقذف النتانة في النار بأيدينا؛ لكي نمتلك أنفسنا تماماً.."

أفلتت لفظة ميرزا من فمي عفوياً وتبعها صداها . تلفتّ يمنة ويسرة ، وحثثت خطاي نحو المسجد،،ولمّا إقتربت منه؛ صاح بي البيشمركه الخفير:

- من القادم؟

- أنا ...بيشمركه

واقتربت وحيّيته:

- طابت ليلتك

- طابت ليلتك

سلط عليّ نور مصباحه اليدوي:

- أهو أنت يا مستو؟ ووحدك؟

ثم دلفت إلى المسجد، حيث كان البيشمركه مستلقين هنا وهناك، بعضهم نائم يشخر، وبعضهم يغالبه النعاس ، ويتبادل البعض الآخر أحاديث ذات شجون. ثمة كان أحدهم في الزاوية البعيدة يرفو معطفه المهلهل. كانت المدفأة الخشبية مضطرمة اللهيب. فككت حزام عتادي و وضعت عليه بندقيتي، وتوسّدت معطفي ونشرت البطانية لأتغطى بها ، وإذا بشيء ما يسقط منها، ففتشت عنه على نور الفانوس الخافت فوجدت صرّة حمراء صغيرة معقودة ، تحسّستها بيدي ، بدت محتوية على نقود، فدسستها في جيب قميصي ، واضطجعت...

(٤)

طغى الكرب والضيق عليه في ذلك المساء، ولم تعد عنده الهمّة لمتابعة فروض أطفاله وتحضير دروسهم وسرد الحكايات الحلوة لهم ؛ حتى يغلبهم النعاس وينامو كمثل الأماسي الماضية. تناول علبة سگائره و شخاطته ودخل غرفته ، حيث تمدّد على السرير ، ثمّ أشعل سيگارة ، وركز نظراته على السقف ، وراح دخان سيگارته يتحلزن في فضاء الغرفة، ثمّ يتلاشى تدريجيًا...وراح خياله مثل الدخان يشكل هالات لاتلبث أن تتبدّد ...

- صدّقني يا كاكه فرج ما يقلقني هو انه مازال صبيًا ...

- حفظك الله ما هذا القول ؛ فهو رجل كامل ماشاء الله ! كيف يكون طفلاً من بلغ المرحلة الجامعيّة؟! هكذا نشأنا على عدم الثقة بأنفسنا. ثمّ تذكر يا أسطه صادق بأن البنين لايكبرون في نظر الآباء والأمّهات ، بل يظلون صغاراً حتى لو بلغوا عرش الملوك!

" أجلْ ..إنه محق ؛ يظل البنون صغاراً في نظر الآباء والأمّهات ، ولكن ليس سواي يعلم بما آل إليه حال هذا الولد النزق ، فقد غدا فريسة للحزن والقلق، واغتمّ جداً لعدم إكماله دراسته..إن الحزن والقلق يهدّان حتى الجبال وليس ابن

آدم فحسب ، بل يتركانه متيبساً كبستان ظامىء...لاأعتقد أبداً بقدرته على تدبير وضعه؛ مادام لم يعايش الوضع هناك ، ولم يتعرّف على الثورة والبيشمركه والفلاحين إلاّ عبر الكتب والمنشورات؛ فكيف سيتدبّر أمره الآن؟! فليكن مايكون بشرط أن يظل حيّاً! فهو شاب ، وليفعل مايشاء...فعلى الأقل سيخبر تجارب كثيرة...أوّاه ما أشدّ تعلقنا بالأولاد! أنظر إلى آته المكتنزة كيف نحل جسمها والتصق جلدها بعظامها و ترمّد لون جهها وغارت عيناها. كيف لاتتأثر وهي أم؟! المسكينة لاتجرؤ حتى على ذكر اسمه خوفاً منك؛ فلذا ينبغي أن تطيّب خاطرها. إن الآباء والأمهات في هذه البلاد يحبون بعضهم البعض ؛ من أجل البنين والبنات ، وما إنْ ينجبوا طفلاً حتى ينسوا أنفسهم.. فعليه يجب ألاّ تكون فظ القلب كذاك النزق ، وبالأخص مع آته..أتعلم كم أنت مدين لهذه المرأة؟! انه لايحصى . ما أكبر فضلها عليك! فضلاً عن أن أهلها يحسبونك في منزلة ابن لهم. صحيح انهم تحججوا و تمنعوا في البداية ولوّعوا قلبك كثيراً ، ولكن لا لوم عليهم ؛ فقد كنت رجلاً فقيراً وغريباً...أجلْ..كنت بيشمركه بسيطاً، ولم يكن لآته ذنب في موقفهم ، بل وقفت إلى جنبك بكلّ ما في وسعها ، حدّ الإستعداد للهرب معك ، إلا أن لمْ يكن فعلاً يليق بالبيشمركه...جازى الله خيراً آل ميرزا حسن الذين تدخلوا ويسّروا الأمر... ياه! كأنما الأمر يحدث الآن ... فقد قصد ميرزا حسن بيت أهل آته ؛ كي يستوضحهم الردّ ، واستغرق ذلك أسبوعاً، ولكنْ يا له من أسبوع ثقيل! كان قلبك في قبضتك : " يكون ..لايكون؟" وفي نهايته قدمت سيّارة من المدينة، وتمنيت لو تهرع إليها كطفل ، لكنك خجلت ، أو الأصح توجّست خشية الخيبة ؛ فقد سبق وأن بعثت إليهم أشخاصاً آخرين ، لكنهم عادوا والخيبة تسبقهم...كنت تخشى أن يحصل لميرزا حسن ماحصل لهم ؛ فينهار قصر يمالك وأمانيك . و طالما كنت تؤمّل نفسك : " لابأس إنْ لمْ يتحقق الآن ؛ بشرط ألا تتزوّج هي وتنتظرني" وعندها أسرعت إلى الخالة (حلاو) واستعطفتها لتذهب وتستقصي ما إذا كان ميرزا حسن قد عاد بسيّارة القرية، أم لا؟ فذهبت الخالة حلاو ولاأحد يتمنى لحظات انتظارك المقلق

على أحرّ من الجمر، وبعد فترة وجيزة عادت وهي تبتسم من بعيد...و حالما دخلت المجاز؛ نهضت وابتدرتها مضطرباً:
- أبشري يا خالة
- فدتك خالتك بروحها مبروك
لم تدر كيف تتصرّف من فرط غبطتك ؛ إذ كنت تصبو إلى احتضان الخالة حلاو وشمّها.. ولكنك تمالكت نفسك وسألت:
- إيه يا خالتي حدثيني بالتفاصيل ، حسناً لمَ لمْ تحضر أمي؟
تطلعت إليك بودّ ، فتحسست وجهها الطافح بالبشر:
- وما حاجتك لأمك؟ ومن أكون أنا هنا؟ أمك لم تحضر ؛ لإنشغالها بتحضير ثياب العروس. وغداً سنرجع أنا وميرزا حسن بسيارة البيكاب
- لماذا؟
- ألا تدري بأني سأزفها إليك بنفسي؟ سترى أيّة عروس مزدانة سأزفها لولدي! سأعلمها خلال يومين فقط كل مايتعلق بالحياة الزوجيّة مالم تتعلمه خلال عمرها ...سأزف إليك عروساً متفهّمة؛ بحيث تظلّ طول عمرك ترسل الرحمة إلى قبري.
كنت تكاد أن تطير فرحاً ، وخرجت دون توديع الخالة حلاو، ووجدت القرية لاتسع فرحتك ؛ فخرجت منها ، و رحت تتمشى... و شعرت بأن تحقيق الأمل يمنح المرء الغيرة والرجولة مثل مايمنحه السلاح للشبان المتحمّسين ؛ بحيث تغمر الثقة روح المرء ويشعر بقوة رجولته..
وفي مساء ذلك اليوم خوّلت ميرزا حسن وكيلاً لك لعقد قرانك، وقد بشرك بأنه قد دعا فرسان القرى المجاورة للحضور واستقبال العروس في يوم الإثنين المقبل...ولكن الوجوم إستبدّ بك بدلاً عن الإبتهاج ، فقرأ ميرزا مايدور في خلدك وتساءل:
- بماذا تفكر؟ أ في مصاريف حفلة العرس؟ لا لوم عليك ؛ فأنت بيشمركه وشبه معدم، ولكن إعلم يا بنيّ أن من عاداتنا وتقاليدنا أن تساهم القرية كلها في تدبير المصاريف ، ليس إكراماً لك فحسب ، بل هي التقاليد يا ولدي ، ومادمت

بيشمركه ؛ ستفعل أكثر من المعتاد...سيساهم كل بيت حسب مقدوره في إعداد الطعام الذي سيتناوله الحضور في مضيف القرية ؛ لذا يسوؤني أن تغتمّ وتحسب نفسك مديناً لنا ؛ إنما نفعل ذلك لأحد أبنائنا...قد يكون وجومك لصدمتك بالخبر السعيد! غداً سأذهب والخالة حلاو، وفي عصر الإثنين المبارك الآتي سنعود جالبين العروس بإذن الله...

ثمّ حلّ الإثنين الموعود، وقد إستعدّ الجميع بكامل زينتهم كباراً وصغاراً ، شباناً و شابات ، رجالاً ونساءً... كانت رائحة التمن المطبوخ واللحم المقلي والحطب المحروق حتى الرطب تتصاعد من مداخن مواقد أهالي القرية تسكّر المرء و تشهد على سخاء أولئك الناس الطيّبين . كان الشتاء يودّع آخر أيّامه، وكانت الأرض ريّانة والسماء صافية..وكان رأسا صف المدبكين والمدبّكات لايحصرهما النظر . لقد كان اليوم يوم العشاق والعاشقات وهمساتهم وغمزاتهم ، وكانت هلاهل النسوة الجهيرة وصيحات الراقصين ورنين الحلي ورجرجة النهود والعرق الناضح من خدود الفتيات ، وأصوات العيارات النارية المنطلقة من البنادق والمسدسات ..كل ذلك كان يبث تيّار الطمأنينة في كيانك ، ولم تقف ساكناً فدبكت فترة ، لكن أترابك سرعان ما أخرجوك من الدبكة : " كاكه صادق يجب ألا تتعب نفسك" و" إستبق قواك لليل!" و" أدخر دبكتك لعروسك في الليل!" وطبعاً كنت تتمنى ذلك من الله ؛ فصعدت مع (كاكه رش) فوق سطح المسجد ، حيث كانت عيناك ترقبان الطريق ، وعندها قال كاكه رش:

- عزيزي دوغري حين تدخل الليلة على عروسك لاتهجم عليها كالكردي الذي لم ير اللبن في عمره! فقد تترك ليلة الدخلة آثارها سلباً أو إيجاباً على مدى الحياة الزوجية؛ لذا على العريس أن يتعامل بهدوء ورويّة مع عروسه ويزيل خجلها ويجتذبها إليه ...واعلم حين تكونان في الحجلة وحدكما ، ستكون هناك جمهرة من الفتية والشبان أمام بابها يتصايحون : " هيّا هيّا ألمْ تنته؟! عجّلْ..ما الخطب؟!" وغيرها من الترهات. لأن فض بكارة العروس بسرعة يعد علامة فارقة للرجولة حسب العقلية العشائرية المتخلفة ! وطبعاً يتجمهر بعضهم أمام الباب ؛ لكي يطلق الأعيرة النارية عند خروج العريس ، ثم يتفرقون ، وهنا

يمكنك أن تخدعهم ؛ فتخرج في الوقت المناسب ؛ لكي يطلقوا أعيرتهم وينصرفوا، فتعود إلى عروسك.
ولمّا رفعت رأسك متطلعاً إلى مشارف القرية ؛ إذا بالفرسان يسارعون لإستقبال موكب العروس ، فنظرت بمنظارك و رأيت العروس تنزل من السيارة، وكان نقابها الكحلي يبرق من بعيد. وأركبوا العروس على فرس يمسك (لاله حمه) عنانها ويمسك (صالحوك) و(احمد جاو جوان) بركابيها، وحمّلوا جوادين آخرين بأغراض العروس، وركبت الخالة حلاو أحدهما، وسار الموكب الهوينى، ومضى الفرسان المتحلقون يبدون أفانين فروسيتهم، بينما كان الشبان ذوو البنادق والمسدسات من الصاعدين على سطوح بيوت القرية ينتظرون الطلقة الأولى لإستقبال الموكب لينخرطوا في إطلاق العيارات النارية. وقد ناولك أحدهم قصبة طويلة لتضرب بها عصابة رأس العروس عند دخولها؛ لتفرض هيبتك وهيمنتك عليها حسب التقاليد المتوارثة! وكان بضعة آخرين يحملون أكياساً ملؤها الجكليت والحامض حلو والزبيب والحبّية المشوية لنثرها على العروس ؛ تفاؤلاً بمقدمها الميمون حسب التقاليد. وحالما أطلق أحدهم الطلقة الأولى ؛ تعالى أزيز الرصاص من كل صوب ، والرجل الرجل هو كل من يطلق عدداً أكبر من الطلقات ؛ برهاناً على إخلاصه للعريس والعروس ، ولكي يبتهج قلب العروس : " كلّ هذا الفرح من أجلي..."! ثمّ وصلت العروس قرب البيت ، لكنها أبت أن ترتجل: " لن أنزل!" ففكرت : " ألمّ تخبرني الخالة حلاو بأنها ستزف إليّ عروساً متفهّة مطواعة؛ فأترحّم عليها مادمت حيّاً؟!" ولم يكن الحشد يتوقع موقفها هذا، وكاد البعض أن يهين الدليلة خالة حلاو، والتي سارعت إلى حلّ المشكلة: " ترجّلي يا ابنة الكرام.." فتحججت : " لن أترجّل ؛ حتى تعطوا بخشيشاً جيّداً لمرافقيّ فرسي و لي أيضاً" وسرعان ما استجابوا لطلب العروس ، ثمّ قالت إحدى النسوة ضاحكة مازحة : " لقد نفذنا طلبك الخاص بالمرافقين ، أمّا بخشيشك فهو الثور الأحمر!" وقد فهمت لاحقاً أن المقصود بـ(الثور الأحمر) هو العريس !

***

مع أذان العشاء أدخلوك على العروس، فانفردت بها في الحجلة ، حيث كانت رائحة البخور المحترق والقرنفل وحناء يديها وقدميها وعيناها المكحلتان تبعث في جوارحك النشوة..وإذا بهم يصيحون بعد فترة وجيزة وينادونك متسائلين:
- ألمْ تنته يا صادق؟!
فانتفضت آته والتصقت بك باستحياء، وهمست:
- ويلاه! ما هذا اللغط؟! لقد أفتضحنا!
- هيّا عجّلْ يا ولد...ما الخطب؟! لو كانت ربينة عدوّ لإحتللتها منذ وقت طويل!
وعندها سارعت بالخروج إليهم ؛ فأطلق كل واحد منهم إطلاقته وصافحوك ، وسرعان ما إنصرفوا...
لمْ تمض سنة واحدة على زواجك حتى ارتأيت أن تهجر السلاح ؛ إذ شممت في جوّ الحركة رائحة شقاق وانشقاق ، فتركت البيشمركايتي ، لكن قسمك ظلّ راسخاً في بالك: " أقسم بالقرآن و بشرفي ألا أخون الكرد وكردستان" ثمّ إنك لم تصبح مقاولاً مثل بعضهم ، بل لم تتمكن من تكوين بيت متواضع إلا بشقّ النفس...بالإقتراض والعمل المرهق وإعانة الأقرباء.

***

ثمّ أشعلت سيكارة أخرى " ما أغرب عوطف الأباء والأمّهات! كأنما ليس عندكم سوى مستو! لكن حتى لو كان لك ألف إبن ؛ ثقْ أن لكلّ واحد منهم مكانته الخاصّة..."

دخلت آته الغرفة، وجلست متمسكنة على السرير الذي صرّ صريرا:
- لم أعهدك قاسي القلب هكذا يا رجل ؛ فمنذ فترة طويلة لاتسأل عن ولدنا، أو تحاول تقصّي أخباره! فهو لمْ يبتر ذيل حمار الإمام الويس ! بل حريّ بك أن تفتخر به...

هم ..م م ...إنه عنيد ..عنيد جداً..وأنا أعرف به منك يا امرأة، ولا أستبعد إمتناعه عن مخاطبتي ؛ إذا ذهبت إليه!
- لكنه مسكين يا رجل..يشعر بالجفاء والوحدة ويعاني من الحرج والخجل بين رفاقه...

وانقلب صادق على جنبه، فزحفت آته إلى جنبه على السرير، واستثار صرير السرير رغبتهما...ثمّ كركر صادق ؛ فسألته آته:
- على مَ تضحك؟!
- أما تذكرين ليلة زفتك إليّ في (باخه كون) في إحدى غرف بيت الشيخ كريم ، حيث تجمهر الفتية والشباب أمام الباب وهم يصيحون : " ما الخطب؟! لو كانت ربيئة للعدو ؛ لإحتللتها منذ وقت طويل!"
فضحكا ، ثم قالت آته:
- حسناً..إكراماً لذكرى تلك الليلة ؛ زُرْ ابننا مستو.
تطلّع في وجهها بنظرات طافحة بالرضا والرقة، وهو يحدّث نفسه : " والله أعلم أيّ ولد مغرور هو! قد يشيح بوجهه عني حتى لو زرته ، لكنما مهما يكن ؛ فهو من دمي ولحمي ، وأنا أحبه ، سأسارع غداً بالذهاب إليه.."

(٥)

حين حلّ الصباح ، سارعتُ بإعادة البطانية . كانت زوجة ميرزا تحلب بقرة، ورأيت قطرات الحليب تنزل على ساعديها المكتنزين :
- تفضلْ كاكه إصعدْ إلى فوق سأجيء بسرعة
لم أحبّذ الصعود ، لكنني إضطررت إلى ذلك لإنشغالها و صرّة النقود...وبعد هنيهات صعدت:
- أهلاً سهلاً بك على الرحب والسعة
- أين ميرزا؟
- ذهب لإلحاق الماعز بالراعي ، قد يعود بعد قليل
- عذراً يا أختاه ..كانت هذه الصرّة في ثنايا بطانيتكم ، وقد هممت بإعادتها إليكم في الليلة البارحة، لكنما الوقت كان متأخراً ؛ فأرجو المعذرة على تأخري...
فشحب وجهها؛ حالما وقع نظرها على الصرّة ولطمت خديها:

- الويل لي! ليقطعوا ضفائري !ماذا كان سيحصل لو لم تقع بيد إبن حلال مثلك؟!

" البيشمركَايتي محبة خالصة بلا رياء"

- جزاك الله كلّ خير، ودام قلبك عامراً بالبشر؛ مثلما أبهجت قلبي ، وليت ميرزا كان هنا

" البيشمركه مدلل الناس والأرض"

- أدام الله ظلّ البيشمركه على رؤوسنا

- " البيشمركه زهرة يفوح شذاها دوماً.."

تناولت الإفطار، وتابعت سبيلي " حمداً لله مازلت بخير؛ لم أنتن ، ولم تغزني رائحة النتانة بعد" وخرجت على مهل من القرية، وعلى المزبلة الواقعة عند مشارفها، صادفتني دجاجة مع سرب كتاكيتها، وإذا بالكتاكيت تتراكض نحو أمّها التي نشرت جناحيها وتقدّمت نحوي " حتى الدجاجة تذود عن فراخها"! ومرّت مشاهد عدة على شريط ذاكرتي ومنها عودتنا من تلك المعركة الطاحنة ، حيث كنت أشعر بأن الكثيرين من البيشمركه يعانون من إنتكاسة مؤقتة عابرة، ولكن من يعاني من إنتكاسة كهذه غالباً ما يشكل خطراً؛ فهو يصبّ جام غضب انتكاسته على كلّ شيء، بل على أقرب الناس إليه، ولم يزل مشهد خالد ملا صالح ماثلاً في ذاكرتي ، كيف حمل كتكوتاً على راحة يده أمام أنظار الناس وراح يتوعّده بغضب:

- سآكلك ؛ إذا لم تخبرني أين أمّك!

كانت غالبية أهل القرية قد هجرت القرية ؛ إحترازاً من القصف المدفعي ، واتخذوا العرازيل والمغاور وشقوق الصخور الكبيرة ملاذات لهم. كان (أميد) من المناصرين للبيشمركه، وقد فقد كلّ مايملك ؛ حيث نهبوه وكنسوا غرفته الوحيدة، وراح (آري) البيشمركه الفتى المرح يطيّب خاطره:

- لنذهب ونبحث في المقرّات يا كاكه أميد

- ولماذا البحث في المقرّات؟ وبعد ماذا؟

- لابدّ أن نـذهب معـا؛ لعلـك تتعـرّف علـى ممتلكاتـك ، فلاشـيء يـضيع لـدى البيشمركه.
- لنفرض ..وجدتها ، فالجو بارد وليس سوى البيشمركه يستحقون البطانيات، ثمّ انهم جائعون ويحتاجون إلى الطعام...ولكن لماذا هذا النهب؟! فقد شاهدت الغرفة بأمّ عينيك ...لقد كنسوها وكأنها كانت فارغة من أيّ شيء! أهذا سلوك بيشمركه، أم....؟!
ومع ذلك ألحّ عليه آري ، واصطحبه إلى (سربست) بصفته شبه مسؤول متنفذ ، وكنت حاضراً هناك:
كاكه سربست ! هذا كاكه أميد المعروف لجميعنا كصديق حميم لنا ...لقد حطموا باب غرفته وكنسوها كنساً...
- و ما دخلي أنا ؟ كان المفروض ألا يتركها...
وحينها كان أميد قد نقل الخبز إلى البيشمركه المتخندقين فوق قمة جبل.
- لابأس يا كاكه سربست..دعه يبحث بين أمتعة وأغراض وأفرشة المقر
- بيشمركتي لمْ يأتوا بأيّ شيء.
وهنا تناول أميد طرف الحديث:
- لاسمح الله لمْ أقلْ أن بيشمركتك لصوص..إذهب والق نظرة على غرفتي ، وتصوّر هل فعل حتى المغول بها مافعلوا!
فرفع سربست رأسه، حيث كان يلعب الكونكان (الورق) وانتفخت أوداجه:
- أ تسبّ الثورة؟! إغربْ عن وجهي..
- كلا، إنما هذه البطّانية التي جنابك تجلس عليها شتيمة بحق الثورة، هذه الأوراق التي تلعب بها، هذا القلم الذي تسجّل به (الطرقات)، هذا الكتاب الذي تسجّل عليه (الطرقات) كلها مثلك تلوّث إسم البيشمركايتي المقدّس يا جناب الثور...ي!
عصفت ثورة غضب بكيان سربست ؛ فاحمرّ وجهه ، وانتفض واقفاً والأوراق بيده:
- أقول لك إذهب في سبيلك؛ وإلا سأقبض على روحك أو ترديني شهيداً!

***

ليلة قمراء خلابة، أنسام عليلة ، تفوح رائحة خريفيّة أسرة وثمة غيمات متفرقة تحجب ضياء القمر هنا وهناك مثل الرقع في ملابس الفقراء. تمعّن مستو في ساعته على ضوء القمر، وخاطب نفسه: " بقيت لي ساعة ونصف من الخفارة ، ولكن لن أوقظ (سامان) سأواصل الخفارة ؛ فهو منهك من سفره، ثمّ أتمتع بهذه الليلة البديعة.."

كان مستو متنكباً بندقيته وهو يتمشى رائحاً غادياً أمام المسجد . وكان النسيم يرقص أشجار القوغ في الطرف المقابل بين الفينة والفينة، وكانت الأوراق المتساقطة توشوش حواليها، ثم تستكين ويركن معها كلّ شيء إلى السكون. وفجأة رجّ عواء مديد بعيد هدأة الصّمت ؛ فتوجّس مستو خشية الشؤم : " عواء الكلاب نذير شؤم ونحس، ولقد جرت العادة عندنا أن يقلبوا الحذاء عند سماعه ، ولا أفقه معنى ذلك! إنما يزعمون بأنه يبعد السوء عنهم! يا لها من من عادات عجيبة وغريبة شائعة عندنا ، ومنها انهم حين يجلبون جرواً ليحرس المنزل أو قطيع الغنم حين يكبر، فهم يقطعون أذنيه وقسما من ذيله، ويطعمونه إيّاه زاعمين بأنه سيصير كلبا يقظاً وشرسا! بل ويمارسون ما يشبه ذلك مع الصبية والفتيان ؛ فهم يعطون أحدهم قنبلة يدويّة : إذهب واقتل فلاناً ...أو فجّرها في المكان الفلاني...ولاتنس أن تعيد حلقتها وإلاّ لن نصدّقك " وهكذا صارت (الحلقة) محكاً للتصديق!

" سحقاً لك يا(محمود) يا لقيط يا ابن الزنا! أيّة رذائل نشرت ! كم إنسانا لوّثت! كم شخصاً دفعت إلى مستنقع الجريمة وكم طاهرا لطّخت سمعته؟!"

و محمود هذا رجل ذو قامة فارعة وبشرة حمراء وعينين زرقاوين شبيهتين بلوزتين ، ولم أزل حتى اليوم أتذكر بعض كلامه: " إن مصلحة الحزب فوق كلّ شيء. يجب على كلّ مخلص أن يذعن كليّاً لقرارات الحزب. فنحن نقتل حتى أعضاءنا؛ في سبيل الحفاظ على وحدة صفوف الحزب . هذا ما يتطلبه التنظيم الحديدي. أجلْ ؛ نقتله ، ثمّ نذرف عليه الدمع الهتون أمام أنظار الناس..."!

تبّاً لك يا ابن الحرام ! فقد جعلت من ذلك الهراء هراوة تهوي بها على رأس من تشاء التخلص منه، حيث كنت تتفرّس حواليك ؛ لتحدّد ضحاياك واحداً فواحداً، ثمّ تجلب أحد السذّج و " تقطع أذنيه" وتلقنه: " إستبدل هذه البندقيّة. إذهب وقلْ : يقول كاكه محمود : عندنا بندقيّة حديديّة الأخمس ، أعطوني إيّاها. إنها هديّتي لك..." ثمّ تربت على كتفه، وتستثيره في كلّ مرّة:

- لقد أفشى أسرار الحزب!
- أطلق الشتائم..!
- له اتصالات مع أجهزة الحكومة!
- إنه خطر كبير!
- إنه مفرّق مثير للفتن !
- إنه يروّج أفكاراً سامّة!

مرحى لك ولدهائك الخبيث يا كاكه محمود! ماذا تحسب الناس؟ هل ألقيت نظرة على ما حواليك؟! أتعلم من هم هؤلاء الذين جمعتهم حولك؟! إنهم شبان سذج أغرار أو أخساء من معدنك الرديء ليس لهم أيّ وزن إجتماعيّاً! سحقاً لك ولدهائك ؛ فهؤلاء وليس غيرهم يلائمون لؤمك ، ماداموا يسعون إلى تحقيق مآربهم بأيديهم وأسنانهم وأيّة وسيلة...إنهم كالقطار السريع! فحين يعجز المرء عن تكوين نفسه ؛ فهو يبحث عن أيّ منفذ ويفتش عن أيّ مسرب وبأيّة وسيلة : الإستغلال ، الإضطهاد ، الإجرام ...لايهم...مادامت نزواتهم تمحق كل القيم وتشلّ ضمائرهم وتلجم ألسنتهم وتقتل نور الحقيقة في أعماقهم ، وإذا ما وئدت الحقيقة أو ماتت ؛ فسيكون كلّ فعل مباحاً...ولكن يا محمود تيقّن أن هذا الوضع لن يدوم طويلاً؛ مهما لوّثت من عقول و ضمائر، بل إنك تحفر قبرك بنفسك...فأنت برجوازي الطبع والفكر والسلوك ، والبرجوازيّون لايستطيعون أن يقطعوا في مسيرات تاريخ شعوبهم سوى شوط أو شوطين ، ثمّ ينحرفون عن سواء السبيل بسرعة (١٢٠كم) في اللوفة : " باي باي..." ! فتماد في تعكير المياه؛ لتبدو عميقة أمام أنظار الناس!

لقد باتت روحي ساهدة مؤرّقة هذه الليلة يا محمود أفندي..لقد عصفت صورتك القبيحة بطمأنينتي وأقلقت راحتي ؛ فقرّرت ألا أوقظ أحداً من رفاقي ، وأن أحل محلّ جميعهم في نوبات الحراسة...إن روحي ساهدة وأذنيّ تطنّان وخيالي يتشبث بي..فحينما زارني أبي كان يرمق بندقيتي بحنو وأسى ، وبدا لي متحسّرا على أيّام شبابه الخوالي: " لاتغتمّ يا بني على عدم إكمال دراستك الجامعيّة ؛ فالمجتمع جامعة، وفي الثورة أبلغ الدروس..." إن روحي المؤرّقة تأخذ بخناقي يا محمود ، وعمر ابتسامتك المداهنة وبشاشتك الخدّاعة قصير...فمهما أحكمت وضع قناعك وتشبثت باعتقادك بأنه يديم جبروتك ؛ فأنت واهم ، مادام ثمّة من يرون وجه الشرطيّ الكامن وراءه! وليتك سمعت ما قصّه أبي عليّ :

" ذات ليلة قريبة، كنت عائداً من محلي . كان الظلام دامساً، وكان المطر يهطل بغزارة، وكانت شآبيبه تنهمر كالخيوط الملتهبة على مصابيح الأعمدة الكهربائيّة. وتهبّ ريح باردة ..وإذا بي ألمح شبحاً على مبعدة مني تحرّكه الريح وتدفعه دفعاً وتقدّم مقتربا مني . كان الماء ينساب عليه ويرتعش مثل ريشة في مهب الريح ، فتفرست فيه ؛ وإذا بي أرى الخالة (ميرم) جارتنا..أم سيابند أما تتذكرها..؟! إقتربت مني على مهل وأمسكت بحزامي واستنشقت شهقة عميقة وتأتأت بشفتيها المرتجفتين: ولدي صادق..أنتم آل دوغري (*) المعروفون وأنت رجل شهم تقول الحقيقة وتفعل الحق ؛ ولو على حساب قطع رقبتك..أجبني بصدق ؛ إن سألتك سؤالاً؟ فأجبتها: طبعاً فليس عندي سوى الصدق يا خالة ميرم وأنت مفخرتنا، فتفضلي و مريني ، فسألتني : لاشك في انك تعرف سيابند؟ فتساءلت: أيّ سيابند؟ فتجهّم وجهها، وبدا لي الوقع السيىء لتساؤلي ، والله وحده العالم كم شتمتني في سرّها! : سيابند ..سيابند إبني ..سيابند الذي مات في عزّ شبابه؟!

- أجلْ ..أجلْ وكيف لا أعرفه؟!

- هل كان سيابند خائناً لثورة كردستان؟!

- كلا ...ولماذا هذا السؤال؟!

- لاشيء..هذا كلّ شئت أن أعرفه ، مع السلامة يا ولدي ...حالفك الخير.
واستسلمت لمهب الريح، وراحت تغمغم وتهمهم كالملتاثة عقليًا ومضت في حال سبيلها وغابت في الزقاق المظلم...وأنت يا مستو هل تعرف شيئاً عن سيابند؟!
فحجبت وجهي بيديّ واعتصرت جبيني قليلاً ، وهززت رأسي يمنة ويسرة.
وتناهى إليّ عواء الكلب من جديد " هذا الكلب اللعين يثير الريبة!" وسارعت بقلب حذاء أحد البيشمركه، فغمرني بعض الراحة ، رغم عدم إيماني بذلك!
رجّت طقطقة ما هدوء الليل، وهيّجت كوامن غربته، وراح الخيال المجنح يطوف بي مدارس مدينتي البعيدة ، وأغمضت عينيّ ، وفتحتهما ؛ فسرت بين جوانحي رعشة باردة...وأنا أتذكر معلمة مكتنزة الجسم ، سمراء ، خضراء العينين ، ينسدل شعرها الطويل على كتفيها وعنقها، ورخيمة الصوت:
- قمْ يا بني
- أ..نا...ست؟!
- أجلْ أنت ما إسمك؟
- رنج سيابند
- حسناً ماذا يشتغل أبوك؟
وإذا بوجه الصبي يكفهرّ ، وينكس رأسه ، وتغرورق عيناه بالدموع ، وتخنقه العبرة .ويلتفت إليه زملاؤه..ويهتف أحدهم بنزق :
- ست ست أبوه قُتِل ، كان خائناً!
لو جاء أبي لزيارتي مرّة أخرى؛ سأقول له : قلْ لها يا أبي قلْ للخالة ميرم : كلا ، لم يكن سيابند خائنا، كلا ، بل كان بيشمركه تضطرم الثورة بين جوانحه.كان مخلصاً..قلْ للخالة مريم أن تفتخر به كلّ الإفتخار ؛ فقد إستشهد سيابند من أجل الحق والحقيقة"
" البيشمركايتي محبّة خالصة بلارياء"
فيا أبي أفهموا رنج بأنه ليس ابن خائن ، وإنما ابن شهيد عظيم.
- مستو
إنتفضت من سياحتي الخيالية

- نعم يا عزيزي هلكوت
- لماذا لمْ توقظني؟ فقد فاتت نوبتي في الخفارة!
- لاعليك يا عزيزي ..إذهب و واصل نومك ، أمّا أنا فلا أشعر بحاجة إلى النوم ، فحتى لو آويت إلى الفراش ، لن يراودني النوم؛ فاذهب و نمْ ...طابت ليلتك.
أذناي تطنّان طنيناً غريباً ؛ فأسدّهما بسبّابتيّ بصورة لاشعوريّة ، وأردّد مع نفسي : " الموت على بالي..الموت على بالي..الموت على بالي.." فقد علمونا في الطفولة أن نفعل هكذا؛ كلما طنّت آذاننا، وكان يحدث أحياناً أن يسدّ الواحد منا أذنيه في بحبوحة اللعب في زقاقنا، ويصيح : " الموت على بالي..الموت على بالي..الموت على بالي.."
لقد إستفاقت روحي وتأرّقت ، وعصف القلق بهدوئي ، وها هي الذكريات تتزاحم على شاشة ذاكرتي ومخيّلتي ؛ فها هو وجه هلكوت المرتبك وصوته الهادىء يغزوان ذهني ومسمعي:
- لقد حذرته مراراً ولكن سدى: حذار حذار يا سيابند؛ لقد نصبوا لك شركاً ..سيؤذونك ...سيقضون عليك ...سيقتلونك شرّ قتلة !
فكان يعلق على كلامي ضاحكاً:
- أقصى ما في الأمر انهم سيقتلونني ...أ تعرف يا كاكه هلكوت بأن الإنسان حقيقة مقدّسة ومعقّدة يختبرها ويمتحنها الفعل، أمّا الموت فيصدر بحقها الحكم الأخير؟!
- تعقّلْ يا سيابند فأنت لاتعرفهم حق المعرفة بعد ؛ فالحلّ والربط بأيديهم...
- لاتهتم يا عزيزي هلكوت فكاكه محمود صديق قديم ؛ فهل يبلغ جحوده ولؤمه إلى هذا الحد؟!
- إعلمْ يا سيابند أن (كاكه محمود) ك هذا محترف سياسة، ومن يحترف السياسة؛ لايكون صديقاً لأحد ؛ فهو ليس صديقاً إلاّ لمصلحته..!
- لكنني مطلع على الكثير من أسراره؛ وهو لمْ يوطد وضعه بعد..
- لوجه الله أنصحك فأقول لك جازماً بأن هذا السبب وحده كاف لموتك يا سيابند!

- ومع ذلك لاتهتم يا كاكه هلكوت ؛ لاضير في ذلك فالمشاركة في الثورة ليست بخيانة، و الموت محك لكشف حقيقة الإنسان...
- لكن موتك هذا لن يكون الموت الذي تبتغيه .
- طبعاً سيتكتمون عليه، سيشوّهونه وسيثيرون الشبهات حوله أليس كذلك؟! ليفعلوا مايشاؤوون ؛ فليس في مقدورهم تمرير ذلك سوى فترة وليس إلى الأبد ..فلكلّ حقيقة شمسها الكامنة في باطنها، ولابدّ من أن يأتي يوم بزوغها وتلقي الأضواء عليها.

***

- مستو..!
إنتفضت والتفتت فإذا به (حسو):
- إذهب و نمْ فأنت مرهق جدّاً
فذهبت ، حيث اندسست في (كيس النوم) وتكوّرت....ثمّ صحوت صباحاً على زقزقة العصافير على أغصان شجرة التوت التي تتوسط صحن المسجد. وتأمّلت جذعها الضخم المحفور عليه المزيد من الأسماء والتواريخ ...
ثمّ تجمّعنا و توزعنا على البيوت ، وكنت أشعر أن جسمي قد خفّ قليلاً ، لكنني كنت مصدوعاً و دائخاً إلى حدّ ما.

(٦)

نادراً ما كان محمود يظهر بين الناس ، ولم يكن يختلط بهم كثيراً، وحتى لو إختلط ؛ فكان قليل الكلام ؛ فاكتسب بهذا الأسلوب هيبة ما. كانت تحيط به شلّة من الشبان الأغرار بعضهم سذج وبعضهم مراؤون أخسّاء شأنهم شأن الظل طالما يرددون كالببغاوات تعاليم (الرفيق محمود) وينسبون إليه ما لايخطر على البال من مناقب؛ بحيث يرفعونه إلى علياء الثريّا! حتى بلغ الأمر حدّاً لو صاح محمود نفسه :" لست مثلما تتصوّرونني وتصوّرونني" لما كان يصدّقه أحد! أجلْ ...كان هناك (رفيق محمود) الأوحد الذي من المحال أن يوجد صنوه..لقد كان هبة من الله إلينا!

- لقد كانوا مخلصين مضحين للكرد وكردستان أباً عن جد
- كان أبوه بيشمركه صنديداً في ثورة الشيخ محمود؛ فسمّاه (محمود) تيمّناً به!
- فعلاً إن أسرتهم (موقوفة) على الكرد وكردستان..
كان محمود يسكن غرفة صغيرة منعزلة نوعمّا..حيث يكون في الوضع الأفضل المحبّذ له؛ فقد كان كثير المطالعة، فهو يقرأ الفأل ؛ للتنبؤ بمصير الشعب الكردي! كان لغرفته بابان ، الأيسر مغلق دائماً ، لايدخل ولايخرج منه سواه و الرفيقة (بروانه)! ولها نافذة مطلّة على الغرب، وعلى أعلى الجدار المقابل للباب صور (ماركس) ، (أنجلز) و(لينين) معلقة وتحتها صورة (ماوتسي تونغ) ؛ إكراماً لخاطر ذوي الشأن! وها هو الآن يذرع الغرفة جيئة وذهاباً ، ويحدّث نفسه: " حسناً لقد أحرزت الكثير من النجاح حتى الآن يا محمود ..أمّا المطلوب فليس سوى ترسيخ الخوف في قلوبهم ؛ لكي تمسك بزمام المبادرة وتوجّه الدفة كيفما ترغب وتشاء ؛ وعندها سيذعنون لك وينصاعون لأوامرك تماماً مثلما يتخاذل الحمل حين يقع نظره على الذئب وينهار أمام مشيئته! فإيّاك أن تغض الطرف عن أحدهم! سيأكلونك ؛ لو تفتحت عيونهم على الحقائق، وإذا انفتحت عقدة ألسنتهم ؛ سيفضحون خفاياك . إنتبه جيّداً لهؤلاء السفلة الذين يتحلقونك ! عليك أن تطعمهم جيّداً ؛ لكي يزدادوا شراسة ؛ فلايجرؤ أحد أن يتفوّه أيضاً بكلمة أمامهم..لقنهم كلمات وعبارات وجملاً بليغة، وعلمهم كيف يلفقون الأكاذيب المهوّلة دون أن يجرؤ أحد على أن يسعل أمامهم ويكذبهم! ومع ذلك لاترخ العنان لهم كثيراً ! وإذا ما شئت الإستخفاف بامرىء ما وإثارة حنقه ؛ فزمّ شفتيك ثمّ فرّجهما قليلاً، وتظاهر بجهلك له حتى لو كان من أقرب المقرّبين لك وتعرف آباءه وأجداده! أجلْ ؛ تظاهر بالشرود وانشغال عقلك وانصباب تفكيرك على مصير الأمّة وتساءل : (آه! نسيت إسمك ، ماهو؟!) هه... إنتبه لهذا الديوث (دلير) أخ القحبه ؛ فهو يكاد أن ينسى منبته الوضيع..روّعه ؛ بحيث لن يجرؤ مرّة أخرى على رفع عينيه أمامك..أجلْ ؛ فلتأت ..فلتأت أخته (القحبه) ..لماذا لمْ تأت لحدّ الآن؟ ليس من المستبعد أن تكون الآن منطرحة تحت فحل آخر في ظلّ شجرة! يجب أن تلجمها لجماً ،

ولكن ذلك لايجدي مع أمثالها...هذه اللعينة لاتخمد شهوتها؛ بل تقطع السبيل على أيّ ديك عابر..وتستسلم كالدجاجة لكلّ من هبّ و دبّ ولاتحرم أحداً من خيراتها ! إذنْ يجب أن تلجمها وتكلفها ببعض الأعمال الصغيرة ، وارخ العنان لها أحياناً ، وليتعرّض لها من يحسب نفسه رجلاً! لعلّ من حسن الحظ أن الناس بمستوى من البلاهة ؛ بحيث أن معيار احترامهم لأيّ شخص يتشكّل من مستوى علاقته بهذا المسؤول أو ذاك"

و ها هو محمود الفارع الطول الذي يكاد أن يمس رأسه سقف غرفته واقف يتطلّع من النافذة ، ويبدو متعباً ، وقد إحمرّت بشرته أكثر ، وتجهّمت سحنته:

- لماذا لمْ تحضر بروانه لحد الآن يا دلير؟

- فديتك روحي ..إذا لمْ تأت بعد قليل ؛ سأذهب بنفسي للبحث عنها ..

ثمّ يستلقي محمود على سريره وبرنو متأمّلاً السقف : " لاأعرف..."

وفجأة يسمع طرقات خفيفة على الباب ، فيفتحه ، فإذا بها بروانه ، وما أدراك ما بروانه؟! عروس في ليلة زفافها، يتراقص ردفاها مثل نابضين عند المشي ، وعيناها المتصيّدتان تشعّان سحراً وتخدّران الرائي، ويظهر نهداها من فتحة صدرها كحمامتين فزعتين ...وعندها يمسك محمود معصمها بقوة ويجتذبها نحو السرير، لكنها تتصنّع العفة وتبدي التمنع لسوء حظ محمود رغم سرعة استجابتها المعهودة:

- آ آ آه لا لا لا لـ..كن

يطوّق محمود عنقها بذراعيه ، ويجتذبها إلى السرير، وهي تحاول التملص منه ، ولاتريد الإستسلام بسرعة؛ لأنها تعلم جيّداً أن سحر المرأة الطاغي يكمن في غنجها، فإن نسيت ذلك ؛ سيبطل سحرها

***

- كيف حالك يا دلير العزيز؟ هذه الرسالة من (سلام) فالرجاء إيصالها إلى كاكه محمود ..

يتردّد دلير في الإجابة وكأنه قد شمّ رائحة ما:

- لكن..

- الجواب السريع عليها ضروري جدا ، سأبقى هنا منتظرا...
يمضي دلير نحو الغرفة متردّدا ويدخلها فيتفاجأ!:
- المعذرة...
وينسحب مسرعاً ويتسمّر في مكانه وقد إكفهرّ وجهه :
- عزيزي آزاد ..كاكه محمود مشغول الآن ، فانصرف الآن ، وسأوافيك بجوابه لاحقاً
وعندها ينصرف آزاد
ويتناول دلير ابريق ماء ويسرع إلى المرحاض...!

(٧)

هاهنا في أحضان هذا الوادي ، مازالت الشمس هي المؤشرة الرئيسة لمعرفة *الوقت صباحا، ظهرا و مساءً...*

كان بين (الخال عزيز) و(خليفه خدر) جفوة قديمة متأصّلة، و طالما كان الصبية النزقون يشاكسون الخال عزيز ويزعجونه بالعبارات الإستفزازيّة :
- إختلط عليك الوقت يا خال عزيز؛ وقد فات موعد الصّلاة...!
- ألمْ يحِنْ موعد الصّلاة يا خال عزيز؟!
وعندها كان يرفع رأسه ويفتح عينيه الصغيرتين تحت حاجبيه الكثين الأبيضين متطلعاً إلى أعلى أغصان شجرة التوت:
- ليس بعد يا خال..؛ فحين يبلغ الظل أعلى غصن من الشجرة؛ يحين موعد صلاة الظهر.
- لكن خليفه خدر قال أن موعد الصلاة قد فات ، وقد إختلط االأمر على الخال عزيز!
وعندها كان ينهض بصعوبة ، ويخطو بضع خطوات مستنداً إلى عكازته ، ثمّ يعتدل في وقفته، ويستنشق الهواء:

- هراء ما قاله خليفة خدر، إنها أسطوانة جديدة؛ فمنذ أن وعيت وأنا أضبط لهذه القرية حسابات الأوقات والسنوات والنجوم وأيام رمضان وأوقات السحور والإفطار والأعياد وأربعينيّتيّ الشتاء والصيف ؛ فلماذا لمْ يختلط عليّ الأمر ولو مرّة واحدة؟! تبّا لخليفه خدر! والله أعلم حتى متى تحيض زوجته! سحقاً لخليفه خدر ! فقد تمادى في استغفالكم بأحاديثه السمجة! إير الزمال في (..أمّه) وفي دبر شيخه المبارك!

***

الشمس تنحدر نحو الغروب ، و خليفه خدر واقف على شرفة بيته وعيناه تتطلعان صوب الأفق البعيد، وهو يسبّح بمسبحته ذات المائة حبّة و حبّة ، وتختلج شفتاه، ويزداد اضطراباً ؛ كلما انحدر قرص الشمس أكثر:

- لاأدري لماذا إنقطعت أخبارهم؟! أللهمّ اجعل الخاتمة خيراً..فقد آن أوان العودة ولكن قافلتنا لم تعد بعد ؛ فهل إختلط الحساب عليّ؟! ليته قد اختلط عليّ ؛ لعلّني أتخلص من هذه الهواجس والوساوس...فالناس قد أغلقوا أبوابهم على أنفسهم ، وانصرف كلّ واحد منهم إلى شأنه..فذاك ميرزا الذي إندسّ طوال العام هذا في غرفته ولم يبرحها، وهو يلازم صبا طوال ساعات الليل والنهارمثل كلب! فلتجيء يا ميرزا مرة واحدة يوميّا لتختلط بالرجال، لابارك الله فيك يا من يحسبونك فهيماً حكيماً! فليحلّ الخراب بهذه الدنيا التي فيها هكذا حكماء! معلوم ؛ فقد كان منذ البداية غير راض عن القافلة ، ولمْ يكترث بأمرها. أولَمْ أجازف بإراقة ماء وجهي قاصداً بيته قبل بضعة أيّام ، وبرهاني هو وجود أحد البيشمركه ضيفاً عنده؟! ألا حلّ الخراب بدارك! قسماً بالقرآن لو كنت أدري بحقيقة موقفه؛ لما قصدته أبداً، فكأنه قد يبدأ فترة المراهقة لتوّه ويلتصق بـ (صبا)ه ألا نلت الخسران في حضرة الله تعالى جزاء إحراجك لي أمام ذلك البيشمركه؛ كما لو أني نطقت كفراً بسؤالي:

- ميرزا أتعتقد أن قافلتنا لهذه السنة ستعود بالسّلامة؟

- ومن يقود القافلة؟

- شيخه إبن حاجي شيخ

- - ها...إنه رجلك المصطفى ! قسماً بالله يا خليفه تأكد بأن قافلة يقودها جاهل اخرق مثله ؛ لايستطيع مائة حكيم ونبيه إعادتها إلى سواء السبيل ، بل تسقط لا في هوّة ، بل في مائة هاوية حتى لو إنبسطت الأرض أمامها!

ألا خجّلك الله يا جناب ميرزا كما خجّلتني أمام ذلك الضيف، وحلّ عليك غضب الله ؛ مادمت لاتنطق بكلمة طيّبة واحدة ، لاأدري لماذا تتفوّه دوماً بالسّوء؟ ألمْ تسمع ما تفضل به سيّد الكائنات فداه آبائي وأجدادي : " الكلمة الطيّبة صدقة"؟! كلا ..إنه يعرف ذلك ، لكنه لم يقل ذلك إلا نكاية بي..أجلْ ؛ فهو يدري بأني أوّل من ارتأى أن يكون (شيخه) على رأس القافلة ، ولذا لاينطق لسانه بكلمة طيّبة! تبّاً لك يا ميرزا الثعلب! لو إكتفى بذلك ؛ لهان الأمر؛ فأنا متأكد بأنه سيتشدّق بالكلام نفسه لكلّ من يقصده: " لاتركنوا إليه ؛ فليس سوى الله يعلم بما يديره في الخفاء! فهو لايبتهج إلا إذا رآكم أذلاء مكروبين! فابتعدوا عنه أثابكم الله خير ثواب ...سيحفر لكم حفرة ، ثمّ سيتفرّج عليكم حين تسقطون فيها! إنه لايرزح تحت حمل ما، ومتى ما داهمتنا بلوى ؛ سينجو بجلده لائذاً بشيخه المبارك ..أمّا أنتم فإلى جهنّم وبئس المصير!"

رفع خليفه رأسه وتطلع إلى مغيب الشمس واستنشق الهواء ملء رئتيه: " أنظرْ أنظرْ إلى السماء كيف تمطر غضباً ، الغضب والدم يحجبان السماء ، وكيف لا؛ وقد تغيّر الناس ، وانصرفوا عن الله تعالى؟! فإذا استمر هذا الوضع ؛ فليست القافلة وحدها لن تعود ، بل ستنطبق السماء على الأرض...أجلْ ستنطبقان على بعضهما البعض، وستمحق العواصف والأعاصير كلّ ماملكت ايدينا وما لمْ تملك محقاً مبيناً، ستمحل حقولنا وتتشرّد نساؤنا وأطفالنا وتفنى البلاد ...سينزل علينا الله غضبه الهدّار ...والله وبالله و تالله سينزله بنا وأكثر؛ وكيف لاينزله ؛ مادام ابن الديوث الخال عزيز الخال خراء يهرف: "سحقاً لخليفه خدر ! فقد تمادى في استغفالكم بأحاديثه الخدّاعة! لاتسلموه لحاكم ؛ سيحلقها ويعطي بأيديكم المرايا لتتفرّجوا عليها. وإذا ما وقعت الواقعة ينجو بنفسه ويتفرّج من العلالي عليكم ، حيث يلوذ بشيخه ، أمّا أنتم فداعبوا خصيتيّ كديشه! "

ثمّ رفع رأسه ونظر إلى المغيب ، وشهق شهقة عميقة : أنظر إلى السماء تمطر غضباً ، أنظر كيف يحجب الدم والغضب وجه السماء! لقد تغيّر الناس! إبتعدوا عن الله. فإذا استمرّ الحال هكذا؛ سوف لن تضيع القافلة فقط ، بل ستنقلب الدنيا ويصير عاليها سافلها وسافلها عاليها، وسيمطر الحجر، وتعصف الأعاصير بديارنا، ونتعرض للإبادة، وتضرب الآفات حقولنا وبساتيننا ، وستتشرد نساؤنا وأطفالنا للعثور على لقمة خبز...أجلْ ؛ كيف لايغضب علينا نور العيون و مالك الكون ؛ إذا تمادى ذلك الديوث الخال عزو الخال خراء في في تجاوزاته: " "سحقاً لخليفه خدر ! فقد تمادى في استغفالكم بأحاديثه الخدّاعة! إير الزمال في فرج أمّه و دبر شيخه المبارك" ستحلّ علينا اللعنة وكيف لاتحلّ ؟! إلهي إقبل توبتي ، ولاتحسب كلامه كلامي...التوبة التوبة...ولاتضيّع أجري" وأخذ نفساً عميقاً : " يا حق..." ثمّ هبط درجات السلم وهو يحجل ومضى إلى المسجد ، حيث توضأ وانهمك في الصلاة ، وكان دأبه أن يبتهل بعد كلّ صلاة ويتضرّع متطلّعاً إلى السماء ، باسطاً يديه: " يا هوو يا خالق يا جبّار يا هوو ...أغثني ..لاتخذلني في عيون الحثالات الغوغاء..وأنت يا شيخي المبارك يا شاه النقشبند إشفع لي ولاتخزني ...فقد نذرت خروفاً سأنحره عند عودة القافلة سالمة هذه المرة، وعهداً ألا أذوق نتفة لحم منه! يا هوو مدد...يا هوو يا مغيث المساكين ...يا حامي المستضعفين ..يا خالق الأكوان والليل والنهار ...إني الكلب القابع أمام باب تكية الشيخ المبارك ألوذ بك يا رب العالمين...أولَمْ تتفضل يا نور السموات والأرض بالقول " دعوني ؛ أستجب..."؟

كانت الدموع الغزيرة تنهمر من عينيه وتجري في ثنايا لحيته البلقاء..كان يتمتم ويغمغم ويتلفت يمنة ويسرة ، وينفخ و يطلق زفراته الحرّى حواليه...وبعدها أعاد ترتيب هندامه ومضى مشوّش البال قاصداً بيته : " أرى من الحكمة أن أقصد الديوث عزيز العجل! لا لا...من الأفضل أن أرسل (زيني) إليه : قومي يا حرمة واذهبي إلى الخال عزيز واسأليه ما رأيه..وما قوله ؛ فالناس يقصدونه من كلّ فجّ عميق ، وهو سيتكهّن بمصير القافلة حتى لو غارت في أعماق الأرض!

إنها حكمتك يا رب! تهب الحكمة والكرامات لمن لو قايضته بحمار ؛ لخسرت البردعة! غفرانك يا إلهي يا غفار الذنوب يا من تغفر ألف ذنب بتوبة واحدة! أنت العارف بكوامن الصدور، لكنني أشهد بأمّ عينيّ الآن ماسيقول هذا الزنديق: " يا زيني أنت أختي ..أنت أمّي ، أضع حذاءك على رأسي ، ولكن لاتدخل لي بذاك العريض اللحية المكسور القرن حتى لو كنت زوجته! فالزيجة قسمتك ونصيبك ! ولايمكن فعل شيء حيال نصيبك ! لكنك إمرأة مصون تفيض خيرات ذاك المبتذل من يديك ، بل لولاك ؛ لسحلت الكلاب ذاك الكذاب الأرعن ! إنك تعرفين مدى اعتزازي بك ..قسماً بالله الواحد الأحد لولا اعتزازي بك لما فتحت فمي ، ولكن لابأس أن تفتديه هذه المرّة أيضاً ، جعله الله فداءً للتراب الذي تطؤه قدماك..فاذهبي يا أختاه اذهبي واخبريه أن قسماً من القافلة قد انفصل عنها ، والقسم الأكبر منها لايجد سبيلاً للخروج من (جبل الصدّ ما ردّ) ولن ينجو منهم أحد ؛ حتى لو إمتلك سبع أرواح!" ثمّ يهزّ الخال عزيز يده ، ويعبس ، ويأخذ نشقات سريعة من سيگارته وهو يلهث: " أسرعي في الذهاب وقولي له: لاجدوى لذهابهم للبحث عن القافلة ، ومع ذلك فليذهبوا درءً للوم الناس ...أوّاه من وجع ظهري! وقولي له ...إذهبي بسرعة وقولي إن (فرج) قد إنفصل أيضاً وضلّ الدرب ولن يهتدي إلا بعد وقت طويل...ولاتنسي أن تقولي له لينهمك في الصلاة وليتضرّع إلى الله وليبكِ كالنساء ! ولكن هل سيستجيب الله لدعاء هكذا ضرّاط...؟!"

***

" من الأفضل أن أقصد جمال.." :

- ولدي العزيز جمال..إنكم رجال كرام ونبلاء ، وعرفتم بالمروءة والشهامة أباً عن جد...إن قافلتنا قد تأخرت في العودة يا ولدي...والله وحده يعلم أيّة بلوى أحاقت بها !

وهنا يتشنج صوته:

- يا لهول الخراب! سينصب علينا لوم الناس لامحالة، سنفقد ماء وجهنا، ولانجرؤ على رفع رؤوسنا أمام الناس! سينبغي علينا أن ننكس رؤوسنا في هذه

المنطقة ونتلقى تهكمات وسخرية الناس... في هذه المنطقة ! فقط؟ لا طبعاً؛ حيث سيبلغ الصدى أقصى البلدان السبعة ، حيث سيقولون: " يا لهم من متقاعسين ودنيئين وأخساء؛ بحيث لم يهبّوا لنجدة قافلتهم!" وبعدها لاتبتلعنا الأرض ولاتختطفنا السماء! أجلْ ؛ سنصير عبرة للعالمين..فانهض يا ولدي يامن أحسبك الرجل الوحيد في هذا ....ويمّمت وجهي إليك بلحيتي البيضاء، إذهب إلى علي حاجي وعبدالله مصطفى وكاكه ولا و جوامير و ازور والشبان الآخرين؛ ليجيء راكباً من لديه حصان وراجلاً من لا دابة لديه، وانتظروني خارج القرية ، حيث سآتي بحصاني ..أكاد أانشق وأنفجر...هيّا فديتك روحي ...سألتحق بكم في الحال ، ولاتنس أيضاً ياولدي أن تعرج على ميرزا إسماعيل ، وتستوضح رأيه..فهلم يا جمال..

***

علا النباح داخل القرية. كان وقع سنابك الخيل وحمحمتها وعويل النسوة المتجمهرات على الشرفات وأمام الأبواب يبث الخوف في القلوب:

- سيحلّ بنا الخراب...

- سنتشرّد ...أخزى الله مَنْ تسبّب في ذلك...

- ويلاه من (جبل الصدّ ما ردّ)!

- عمت عيوني عليك أيتها القافلة التعيسة!

- أطيّن رأسي لحظك التعيس يا أخي شيخه!

- لقد إنفصل فرج يا أختي ؛ فيا للدمار!

- هاتوا قافلة تحمل أحزاني ويلاه

تأخذني إلى جبل الموت ويلاه

تنقذ روحي وكلّ أحبتي ويلاه

- و لماذا كلّ هذا الصخب والضجيج؟!هل نفقت الأبقار وانقطع اللبن؟! ومتى كان لنا نصيب في خيرات القافلة ؛ لكي نهتمّ هكذا بمصيرها؟!

***

دخل خليفه بيته باضطراب ، حيث استقبلته زيني:

- ويلتاه يا خليفه فقد قال الخال عزيز: "لاجدوى من ذهابهم لاجدوى ؛ فالقافلة عالقة في (جبل الصدّ ما ردّ) وليست هناك قوّة قادرة على إنقاذها"
فاجتاح الخور أوصال خليفه وغشي حزن غريب عينيه:
- لا، لا لاتقولي هذا يا حرمة هل أنت متأكدة؟!
- أجلْ ...والله ..فقد قال : " لقد إنفصل فرج القافلة وضلّ الدرب أيضا، ولا تأملوا رجوعه عمّا قريب...
- لا حول و لا...
و راح يغمغم بصوت خفيض: " ومع ذلك ، لايجوز أن نتركهم هكذا..."
- هيّا يا حرمة أسرجي حصاني ريثما آتي ببندقيّتي ...
" لقد أبطلت كلّ ما غزلته يا عزه المخبول!"
- " ... فالقافلة عالقة في (جبل الصدّ ما ردّ) وليست هناك قوّة قادرة على إنقاذها"
- حطّم الله فكّيك و شلّ لسانك ؛ كان المفروض أن تؤجل أكل هذا الخراء يا خال! لعلني كنت أجد فرصة للتفكير والتدبير ، و.....آخ منك يا زيني يا منفلتة اللسان! إلهي رحماك من وقوع كلام في شدق إمرأة! ليت رقبتي انكسرت ولم أرسلك إلى ذلك المجنون الهاذي...ولكن (جبل الصدّ ما ردّ) قد يكون موجوداً ..ها إنه محق ...خذوا الحكمة من أفواه المجانين أو الصبيان لافرق! دعنا من ذلك ، ولكن ماذا أفعل مع هؤلاء الناس السذج سريعيّ التصديق؟ فقد صدّق جميعهم في قرارة أنفسهم...و حالما سنصل قرب (جبل الموت) سيماطلون ويعودون أدراجهم...!
مرّ خليفه المعتلي حصانه كالسهم الخاطف أمام النسوة اللواتي كان نواحهنّ يقطع نياط القلب:
- هاتوا قافلة تحمل أحزاني ويلاه
تأخذني إلى جبل الموت ويلاه
تنقذ روحي وكلّ أحبتي ويلاه
و غادر خليفه القرية إلى حيث كان جمال وشباب القرية في انتظاره

- ولدي جمال هل أنتم مستعدون؟
- أجلْ ؛ فلنذهب يا خال خليفه؛ فالجو ينذر بسوء !
وشرع الجميع بالمسير واجمين يتقدمهم خليفه الذي كان يتوقف قليلاً من حين لآخر؛ ليسترق السمع : "لاجدوى من ذهابهم لاجدوى ؛ فالقافلة عالقة في (جبل الصدّ ما ردّ) وليست هناك قوّة قادرة على إنقاذها"
- هنيئاً لك تشمّت بي يا عزه الغجريّ!...الله كريم وكرامات شيخنا المبارك بينما كان يهز رأسه. كان الوقت متأخراً ، والجوّ ينذر بسقوط ثلج كثيف، وكان الجميع قد تخدّرت أوصالهم و هم على ظهور الخيل، فمن الأفضل في هكذا جوّ أن يمشي المرء راجلاً ، وفجأة هبّت ريح ذات أزيز عابرة أغصان أشجار البلوط العارية وو...وو...ووو....تذكر خليفه عويل ونواح النسوة المتفجعات:
- هاتوا قافلة تحمل أحزاني ويلاه

....

فترجّل عن حصانه:
- وَيْ وَيْ لهذا البرد القارس وَيْ...
وراح يمشي راجلاً، ثمّ توقف برهة:
- جمال وأنتم يا شباب ..لقد قطعنا شوطاً طويلاً، وقد تردّى الجوّ جدّاً ؛ فأخشى أن تغمرنا العاصفة الثلجيّة ، ونخسر الشوارب أيضاً إضافة إلى اللحى! لم يبق أمامنا الكثير لنصل كهف (مُغان) غير مسافة لاتزيد على مائتيّ خطوة ؛ أ ليس من الأفضل أن نحط الرحال هناك ، ونشعل النار ، ونستريح حتى الصباح المقبل و...؟
- إقتراح جيّد جدّاً
مشى الجميع راجلين ، و كلّ واحد منهم مستغرق في هواجسه وتخيّلاته ...
- إلهي ! شيخي المبارك ..لماذا فعلتما بي هذا؟! أوّاه! سيتشمت بي عزه الغجريّ وميرزا ذو الرأس الكبير والغوغاء ..أستغفر الله ...و لا حول ..و لا....

" ولدي العزيز جمال..إنكم رجال كرام ونبلاء ، وعرفتم بالمروءة والشهامة أبا عن جد "

" أيّة قافلة ! فلتأكل رأس صاحبها ، كما أكلته!"

" شيخه؟! هيهـ أ يصلح مثله لقيادة قافلة؟! فلو كان رجلا كفوءً ؛ لحق له ذلك...ولكنه آخر زمان ...آخر زمان !"

" وأنت يا فرج يا زين الرجال وا أسفاه! أرجو ألا يخذلني عهدي بك ؛ فترجع إلينا...

" ...ليست هناك قوّة قادرة على إنقاذها"

" و الله لولا لومة اللائمين ؛ لما حملتني قدماي ...!"

" خليفه اللامبارك ! هل تحسب هذا الأمر كالأدعية والصلوات؟!"

- غداً..عصراً ..سنصل قدمات (جبل الصدّ ما ردّ)

- لمْ تعد حتى الآن أيّة قافلة من ذلك الجبل اللعين...تصوّر إسمه كم هو مروّع !

كان الظلام دامساً ، وكانت العاصفة الثلجية المزمجرة تفزع قلوب الرجال..

- آ...آ...ه وَيْ ساقي وَيْ ..لقد خارت قواي ..حمداً لله فقد وصلنا..

- يا حيف يا خليفتنا لقد شخت !

- أجلْ ؛ يا بنيّ واه وَيْ وَيْ ساقي ..؛ إنها الشيخوخة وألف عيب!

حطوا رحالهم ، وسارعوا بوضع التبن والشعير في الغرارات ، وعلقوها برقاب الجياد ، حيث ربط كل واحد جواده بشجرة، وسارعوا بجمع كومة من الأغصان والأعواد والقش ، وأشعلوا فيها النار أمام الكهف، وراحوا يمتدحون النار:

- إنها نارنا الملتهبة لن نعطيعها للبنت الغريبة

- النار فاكهة الشتاء والبرغل علف الرجال!

***

كان أحدهم أثناء المسير يصيح من حين لآخر:

- يا شيخه يا يا...

فكانت الجبال والوديان تردّد الصدى " يا..يا ..يا.."

- يا قافلة ...يا يا ...
- يا فرج يا يا...
كانت الأصوات والأصداء تتردّد بين الجبال ، ثمّ تتلاشى وتضيع...
كان الجميع منهكين ، دائخين و جائعين ، ويتبادلون النظرات المتسائلة ، ثمّ لايلبث الواحد منهم أن يطأطيء رأسه كأنه يقول: " لاجدوى .ز لاتبحث عن المفقودين"!
ثمّ هدأت العاصفة الثلجيّة، ولكن غيمات داكنة كانت تحجب الشمس أحيانا، وتلتصق ظلالها بالأرض كالرقع لفترة وجيزة...بينما كانوا يسلكون طريق العودة إلى القرية مهمومين مغتمّين يحدوهم خليفه البادي في غاية الإضطراب والإحباط :" لا، ينبغي ألا أعود إلى القرية في هذا الوضع ؛ سأغدو محط الإستهزاء والسخرية...يا لمصيبة انطلاق ألسنة الناس من عقالها؛ فهي تحيل المرء إلى خرقة قذرة ..وتلفق له ألف فرية وفرية. يجب ألا أعود الآن ؛ فسيرمون على عاتقي مسؤوليّة كلّ ما حلّ بقريتنا في ماضيها وحاضرها...سيتصدّى لي حتى الصبية الزعاطيط ويتعنتر عليّ كلّ من هبّ و دبّ...فأين أنت يا شيخي المبارك أنجدني..."
و لمّا وصلوا إلى الطريق المستقيم، توقف خليفه وعيناه مغرورقتان بالدمع ، و شفتاه ترتعشان. كان يعرف بأنه لو يفتح فمه ؛ سيفلت زمام نفسه ويجهش في البكاء. " تأكّد يا خليفه ان قافلة يقودها جاهل اخرق مثله ؛ لايستطيع مائة حكيم ونبيه إعادتها إلى سواء السبيل ، بل تسقط في مائة هاوية حتى لو إنبسطت الأرض أمامها!" و " ..تمادى في استغفالكم بأحاديثه السمجة! إير الزمال في كس أمّه وفي دبر شيخه المبارك"
وفي تلك اللحظات ، تطلع إلى جمال والشباب بعينين غائمتين مثيرتين للشفقة ، وخاطبهم بصوت منكسر:
- أعزائي الشباب ...أ....نـا....لا....أسـ.....تطيع العودة الآ..ن إلى القرية ؛ إذ لايمكنني رفع هامتي ...سأقصد شيخي المبارك وأستجير به...وسأسهر حتى الصباح الباكر مبتهلاً إلى الله ؛ لإنقاذ قافلتنا المنكوبة ...أستودعكم الله ..

و لكز خاصرة حصانه بركابيه واستدار يمينا ، وانطلق حصانه ناهبا الطريق ، بينما كانت عيون الشبان المذهولين تتابعه حتى اختفائه عن الأنظار...

- يا للمسكين التعيس ! سيهيم على وجهه من شدّة الخجل..

- اللقلق مسكين ، لكنه يأكل الحيّة!

- إنكم لاتعرفونه حق المعرفة؛ فهو أثافي سبعة قدور!

- في كلّ شعرة من لحيته ألف حيلة ! خراء على لحيته!

- حسناً:.وماذا عن مصير زيني؟!

- ها هوو...أنتم لاتعرفون خليفه الذي غلب حتى إبليس ؛ سيتسلل خلسة ذات ليلة ويأخذها...إلى حيث يعيش...

- إن هذا أفضل لنا ؛ مادام قد ولى و غرب وجهه عنا

- يولي؟! لا أعتقد ، إنما سيقعي كالكلب عند شيخه المبارك متظاهرا بالتقوى والورع ، وينتظر حتى ينسى الناس فعلته هذه ..، وحتى حينئذ ليس بمستبعد أن يعود فرج؛ فيقصده متزلفا بمعسول الكلام ، ويغدو أخاه الذي لم تلده أمّه!

- لن يُتاح له ذلك ؛ فقد ولى ذلك الزمن...

ثمّ تابعوا المسير، يحدوهم جمال وهم صامتون لايتفوّهون بكلمة، كأنما على رؤوسهم الطير! في حين كان جمال يتوقف أحيانا كمثل من يصغي لأحدهم : " بنيّ..إنما الشجاعة في أن يعرف المرء نفسه، وقدراته ، وما في مقدوره ان يفعله ، وليس في أن ينخدع ، ثم يخدع الناس بسراب الأماني الخاوية والأهواء ..فلتتقدّم بما لديك من إمكانات ، ولاتحجم..؛ وإلا فإن الأهواء الجوفاء ليست إلا ملاذ العجزة...إن معرفة النفس مفتاح الحياة الحقيقيّة، وأنتم وما تشاؤون.." و " من الأفضل أن تذهبوا على الأقل ؛ لكي لايلومكم الناس ..أستودعك الله"

وكانت بسمته أحياناً تضيء وجهه الذاوي برهة كومضة برق ، وهو يتذكر : " ولدي العزيز جمال..إنكم رجال كرام ونبلاء ، وعرفتم بالمروءة والشهامة أباً عن جد "

ولكنه كلما تذكر مصير القافلة؛ كانت الدنيا تظلم في عينيه: لقد كان الأمل معقوداً على تكوين هذه القافلة وشروعها بالمسير، فإذا بالشيوخ وأبنائهم ؛ ومريديهم وخليفه يختلسون زمامها ويصبحون أعيان القوم وأسود الميدان...!"

" بنيّ..إنما الشجاعة في أن يعرف المرء نفسه، وقدراته ، وما في مقدوره ان يفعله.."

" ألا بورك في الصلب الذي انحدرت منه والحليب الذي أرضعتك به أمّك يا ميرزا!"

وفجأة توقف ليخاطب الشباب، حيث جاشت الدماء في عروقه، وكانت أوصاله ترتعش من الإنفعال، فهدر صوته:

- أيها الشباب ..لقد إنتهت أيضاً قافلتنا هذه!

فعلق الجميع بصوت واحد:

- إنتهت إذنْ

- ولكننا لانستطيع الإستمرار بدون قافلة!

- أجلْ لانستطيع الإستمرار ...لانستطيع العيش..

- فهلمّوا لنقرّر ألا نرقص بعد اليوم على طبل ومزمار كلّ من هبّ و دبّ ...أجلْ ؛ لنعرف منذ الآن فصاعداً أنفسنا حق المعرفة ؛ لكي نعرف الآخرين على حقيقتهم ، ثمّ إن الشجاعة في أن يعرف المرء نفسه، وقدراته ، وما في مقدوره ان يفعله ، وليس في أن ينخدع ، ثم يخدع الناس بسراب الأماني الخاوية والأهواء..وإذا لم يكن الراكب فارساً ؛ فسيصير عبئاً على الفرس ، و إذا لم يكن حادي القافلة أهلاً لقيادتها ؛ فسيتسبب في هلاك نفسه وضياع القافلة...

(٨)

- كاكه سلام...يا كاكه سلام!

- نعم عزيزي آزاد..تعال ..أنا في غرفتي

- قال كاكه دلير أن الأستاذ محمود مشغول حالياً ببعض الأمور؛ سيوافيك لاحقاً بالجواب على رسالتك..

همّ آزاد بالإنصراف ، لكن سلام ناداه:

- تعال يا آزاد لأقرأها لك ؛ لأعرف رأيك فيها، فقد احتفظت بنسخة ثانية منها...

فلبّى آزاد طلبه، فقال سلام : إذنْ إستمع:

{ الرفيق المناضل الأستاذ محمود المحترم

تحيّة ثوريّة حارّة

لكي لاتشوّه أيّة شائبة رسالتي ؛ فأنا أسجّل واقعة لقائي بذلك الرقيع سيابند ، سيامند بلا زيادة ولا نقصان ، وأبعثها إلى جنابكم : آملاً أن تنال استحسانكم..

بينما كنت واقفاً أمام الباب ، توقف ذلك الأرعن المغرور بلا أيّ تكلف كأنه قاصد بيت أبيه الكلب، وقال بتعالٍ:
- نهارك سعيد
وعندها تذكرت تعاليم حضرتكم "...إذا ما شئت الإستخفاف بامريء ما وإثارة حنقه ؛ فضيّق عينيك و زمّ شفتيك قليلاً، وتظاهر بجهلك له حتى لو كان من أقرب المقرّبين لك! أجلْ ؛ تظاهر بالشرود وانشغال عقلك وانصباب تفكيرك على مصير الأمّة ...!" فما كان مني إلا أن أضيّق عينيّ وأزمّ شفتيّ ولم أجبه..فحدّق فيّ هنيهة ، وغمغم عند مروره أمامي:
- يا لها من مهزلة! إست في الماء وأنف في السّماء!
فانتفضت في وجهه كعاصفة ثلجيّة:
- ماذا قلت يا رقيع؟!
بيني وبينك أستاذي العزيز إنه إبليس ؛ فقد تنصّل من كلامه ، وأجابني بلا تردّد:
- فديتك.. لاشيء
- كلا...فقد قلت شيئاً ما
- فديتك ..لمْ أقلْ أيّ شيء
- كذاب..لقد شتمت
- ومن الذي شتمته؟
ولكي أستفزّه ، وأهيّج انفعاله وأستدرجه ؛ ليرتكب غلط ما، ذكرت اسم جنابك:
- الرفيق محمود
- لاتلفق لي هذا الكلام الباطل؛ فأنا لا أعرف هذا الرجل الطيّب ، وليس من حقي أن أسبّه.
وعندها تقصّدت أن أرفع صوتي وأصيح ؛ بحيث يخرج شوان فيكون بدوره شاهداً:
- جميل جدّاً..أ ليست عباراتك هذه شتائم؟!
- أيّة عبارات؟!
- ها...أ تتجاهلها؟! و هل ثمّة شتائم أقذع منها؟!

- فديتك عذراً ؛ فقد غلطت !
- و لمَ تغلط؟
كان الإبليس يحاول الإفلات من قبضتي بأيّة طريقة ؛ فأجابني ببالغ الهدوء:
- لأنني ولدت بالغلط!
- ولماذا ولدت بالغلط يا قوّاد؟!
وجم هنيهة ، ثم أجاب:
- عزيزي لايتطلب الأمر برهاناً ؛ لم و لن يولد أيّ إنسان بمحض رغبته وإرادته
- و هل هذه فلسفة ، أم غلط؟!
- لمْ تنس الفلسفة هذا الغلط يا عزيزي
- واضح جداً بأنك تضمر الكثير و تظهر القليل جداً!
واقتربت منه وسألته بإلحاح:
- حسناً..و ماهي الفلسفة؟
- علم العلوم ..علم في غاية الرحابة...أمّ العلوم قاطبة
- و ما مدى رحابة الفلسفة؟
- إنها أرحب من تطوّر الطبيعة ومن تقدم المجتمع والفكر البشري !
- طيّب ..إذا كنت تعرف كلّ هذا؛ فلماذا ولدت بالغلط؟!
- فديتك..إكراماً لخاطرك ، فأنا أعيش أيضاً بالغلط!
- و ماذا تفعل هنا إذنْ؟!
- مشدود بهذا المكان
- كيف؟
- بالغلط!
فحدجته شزراً بنظرات نارية، وصرخت في وجهه؛ فمضى مسرعاً إلى الكنيف..فقلت لنفسي " لابأس ..يبدو انه قد فقد السيطرة على نفسه من شدذة الخوف" وحضر(ريبوار) في تلك اللحظات ؛ فسردت عليه الواقعة حرفيّاً مثلما أدوّنها لجنابك بالضبط ؛ فلمْ يستطع ريبوار ضبط أعصابه ، فهمهم ساخطاً
- لقد تمادى هؤلاء السفلة في صلفهم ؛ قسماً بكردستان لنجعلنّهم عبرة لمن اعتبر..
- لا، يا عزيزي ريبوار- و عذراً لتعبيري يا أستاذنا الجليل- سنجعلنّهم كاشيّة من أرضيّة المراحيض!

و فجأة علا صوت سيابند:
- كلما زاد السماد الحاضن للبذرة؛ نبتت وأزهرت بسرعة، وتفتحت الزهرة بصورة رائعة.زوكلما إنحط المجتمع ؛ تسارعت وتيرة ميلاد الفكر، وتسارع حمل السلاح ؛ فلابأس أن نكون الآن كاشيّة فوقكم!
وعندها اندفعنا للإنقضاض عليه، لكنه لاذ بالفرار.
ودمتم للنضال.

سلام
العضو المتقدّم }

- فما رأيك يا آزاد؟ أتظن بأن الأستاذ محمود سيستحسنها؟
- ليتني كنت أمتلك موهبتك الكبيرة في الإنشاء..والله لو كنت مكان كاكه محمود ؛ لجعلتك مسؤول جريدة سياسية
فطرب سلام كثيراً لذلك المديح
- لماذا؟
- بيني وبينك.إنك تتقن السب والوعيد!

(٩)

عجوز متشحة بالسواد وضعت صحناً من اللبن الرائب أمامي وصبّت لي الشاي. كانت رائحة كريهة تفوح من الصحن ، ونهضت العجوز متثاقلة:
- سأذهب لجلب قليل من الماء من النبع يا ولدي ، أمّا أنت فتناول طعامك ، ولا حرج عليك ؛ فالبيت بيتك، فإذا تأخرت أنا في العودة و شئت الإنصراف ؛ فاسحب الباب وراءك.
ورفعت رأسي ، فإذا بإمرأة أمامي شبيهة بالخالة ميرم وهي تسير في مهب الريح مرسلة شتائمها و صيحاتها: " هوو يا الله يا ناس يا أشجار يا حيطان يا أرض يا سماء إني أخاطبكم جمعيا؛ فلاتتحججوا من بعد (أن ميرم لم تحذرنا) حذار أن تغلطوا وتأكلوا هذا الخراء مرة أخرى أن تقولوا : (سيابند ابن ميرم كان خائناً) إغبن الفقير لايخون ، والويل للقطانكم إذا قالوا عن رنج بأنه إبن خائن ! قسماً بالله و كردستان سأمرّغ جباهكم في الوحل...هيّا اخرجوا إليّ

أخرجوا ..خسئتم يا جبناء أخرجوا لماذا تندسّون كالكلاب الحقيرة بين أفخاذ نسائكم..أخرجوا وانظروا ...فليأخذكم الموت جميعاً ؛ فداءً لساعة واحدة من عمر صادق دوغري...هوو...أيها الناس والله سيابندي سيابند إبني شهيد ...شهيد الشهداء..."

" لقد قاست ميرم التعيسة بؤس الترمّل وشظف العيش؛ لكي تربي وتعلم ابنها ، وتحملت شتى صنوف الحرمان...أجلْ ؛ فقد ضحت بشبابها و حياتها، وتنفست الصعداء؛ بعدما استطاعت أن تزوّجه وتكوّن له بيتاً ، فانزاح عبء ثقيل عن كاهلها، وآن أوان خلودها إلى الراحة ، و لكن سرعان ما وقعت الواقعة ؛ و كأنما قُدّر لها أن تربّي اليتامى...وها هو دور حفيدها رنج!"

و فجأة جفلت على صوت صفارة ، فنهضت واقفاً أستجلي الأمر، فإذا بالبيشمركه يتقاطرون أفراداً وجماعات من أزقة القرية على المسجد، بينما كان *دويّ المدافع يتنامى إلى الأسماع ويترتد صداه في بطون الوديان ، وبين الفينة* والفينة كانت لعلعة رشاش تستثير همم البيشمركه الذين إحتشدوا جميعاً ، ماعدا دلير الذي لم يبدُ له أثر.

وانبرى القائد (نبز) يخاطبنا:

- أيها الشباب..لقد نشبت معركة ؛ فعلينا الإسراع لنجدة رفاقنا البيشمركه ، وسنصل إلى هناك في غضون نصف ساعة؛ إذا حثثنا الخطى. و ريثما نصل ، سيكون أخوتنا البيشمركه قد قطعوا الطريق على قوات العدو، وهي قليلة ، ثمّ إنكم من البيشمركه القدامى وأنتم أعرف مني ولستم بحاجة إلى إرشادات حسب اعتقادي، وحالما نبلغ المكان ، سيتخذ حملة بنادق البرنو مواضعهم، ويتقدم حملة بنادق الكلاشنكوف، أمّا حملة رشاشات الـ (بي كي سي) فيكونون على الجانبين ، ثمّ سيبلو كلّ واحد منكم بلاءه في موضعه ...يا ترى هل تخلف أحد؟

- دلير فقط

- أف له..أيّ ديوث هذا الذي إبتليتني به يا محمود؟! بعد عودتنا سالمين من هذه المعركة؛ سأعالج أمره...والآن هيّا يا رفاق فديتكم ...ليدبّر كل واحد منكم شيئاً من الخبز من البيوت ، ريثما نغادر القرية...

تقدّمنا نبز ومع مسيرنا تزوّد البيشمركه بما تيسّر لهم من الخبز من البيوت الواقعة على الطريق ، وإذا بنا نرى دلير واقفاً على الطريق ، وهو يحمل بندقية برنو بدلاً من بندقيته الكلاشنكوف ذات الأخمس الحديد ، فخاطبه نبز بغضب:
- أين كنت أيها الرعديد ، وأين كلاشنكوفك؟
- إستبدلتها ببرنو(خوشناو) يا كاكه نبز
فألقى نبز علينا نظرة ذات مغزى تفصح بصراحة " أنظروا إلى هذا الجبان ، وأجيبوني بضمائركم أ هو بيشمركه ؟ وهل كان له هنا مكان لولا أخته الـ....؟!"
و سرنا في طابور طويل. كان الجميع صامتين ، وكأن كلّ واحد منا يفكذر بالإنتقام على حده..وأنا في ريبة من هذا السافل دلير وأخشاه كثيراً ؛ لربّما أرسله محمود خصيصاً لمراقبتي ؛ فقد إرتاب النذل فيّ بأني على علم باغتيال سيابند، ولكن لماذا لمْ يجاهرني بذلك؟! إنه داهية نغل، ويبدو انه قد إدخر لي العقاب. سينتقم مني حتى في آخر يوم من عمره. إنه أخس الأخساء، ولا يتوانى عن اقتراف أيّة جريمة في سبيل مآربه الدنيئة...إية...كفى يا مستو دعك من هذه الظنون والهواجس التي تراودك وجعلت الدنيا في عينيك جلد عصفور؛ فمن يكون هذا الديوث الجبان؟ والله لو استحال ناراً لما أحرق قشة! ولكن ..لا،لا،لا يا مستو حذار من هكذا أذناب؛ أولَمْ يتسببوا في اغتيال سيابند؟! مازلت أتذكر الواقعة ؛ فقد شككت وإلتصقت بركن عند الباب الأيسر، حيث أخذ سلام وآزاد سيابند و حالما وصلا باب غرفة الرفيق محمود دفعاه إلى الداخل بعنف، وهتفا بصوت واحد:
- ها هو يا رفيق محمود وبعد برهة صاح الرفيق محمود حانقاً:
- ماهذا يا (حرب!) (**) " سنجعلنهم كاشية لأرضية المرحاض" ما هذا الهراء الذي تفوّهت به؟ أخرج أيها الدنيء الرعديد يا سلام
ثم إلتفت إلى آزاد :
- وأنت لماذا تسمّرت هنا؟! إغربْ عن وجهي

فخرج اللذان كانا ذئبين قبل قليل ، و مكثا يرتجفان أمام الباب كثعلبين مذعورين ، وكان سلام يرمق وجه آزاد بنظرات ذليلة كنظرات طائر مقفوص ، وهو يتذكر عباراته : " ليتني كنت أمتلك موهبتك الكبيرة في الإنشاء..والله لو كنت مكان كاكه محمود ؛ لجعلتك مسؤول جريدة سياسية" ها...!

***

كان سيابند أهلاً لمجابهتهم ؛ حيث كان يعرف مواطن ضعفهم ، وإذا ما وجّه إليه أحدهم إهانة ؛ كان يردّ عليها بعشر ، ويلقي الرعب في قلبه...

إلتفت الرفيق محمود إليه:

- ما اسمك؟

- غلط!

- إبن منْ؟

- غلط!

- بالله عليك كيف يكون (غلط) إسماً؟!

- مادام أفضل من (تضليل) يا رفيق محمود (***)

- و منْ يتسمّى بـ (تضليل)؟!

- الكثيرون هنا وهناك

- مثلا؟

- إسألوا أنفسكم و أجيبوا!

- حسناً..أيها الولد الطيّب ما الفرق بين (غلط) و(تضليل)؟

- من أيّ جانب؟

- و كم جانبا له؟!

- العديد

- بيّن لي جانباً واحداً..؟

- هل لأنكم تقيّمون الأمور من جانب واحد؟

- إخرس...هات ماعندك

- حسناً...سأحلله لغويّاً

- تفضّل..
- الغلط : إسم ، مفرد ، معرفة. التضليل: مصدر، وهو أصل مصدر كل المحاسن والمساوىء... أمّا المحاسن فعليها السلام ؛ فهي تُشنَق عندنا عشرات المرات يوميّاً...ويكون فعل التضليل لازماً وبالنتيجة يتحرّك الغلط داخل حدوده ، حاملاً عوامل تنقيته، لكنما (التضليل) يتعدّى حدوده؛ مستبطناً عوامل تلوّثه وقذارته!
- طيّب...مادمت تفكر هكذا؛ فماذا تفعل هنا؟!
- إنني مشدود إلى (هنا) بل أن جذري متأصّل (هنا) ولي ضمير حيّ نابض..
- أ هذا جواب سؤالي؟!
- نعم هو بالذات ، لكنك تجهل جواب سؤالك!
- يعني أنا حمار؟!
- لا أدري
- حسناً. ماذا يعني الضمير الحيّ النابض؟
- التواصل الحميم مع الناس وإدراك هموم وأتراح البؤساء وطموحاتهم
فزعق الرفيق محمود:
- تعالوا خلّصوني من هذا الرقيع!
فاندفع سلام وآزاد إلى الغرفة كذئبين جائعين ، واقتاداه بسرعة إلى الوادي .
أحنيت رأسي ، وغشيت الدموع عينيّ: " سيقتلانه ؛ فما أيسر القتل ...!"
" إنه يروّج أفكاراً سامّة"
" ...نقتله، وبعدها نذرف عليه بعض الدموع أمام انظار الناس.."
" سيقتلونه..سيقتلونه ؛ ثمّ يلفقون شتى التهم بحقه ويحسبونه خائناً خطيراً"!
ثمّ ركضت نحو ركن ساتر ، وكبوت على وجهي ، وغبت عن الوعي ، وبعد هنيهات عصفت بقلبي لعلعة صلية عيارات نارية بعيدة...فخاطبت نفسي : " يا ترى ألا نُقتل نحن أيضاً هكذا غيلة و غدراً.."؟!

***

واصـــل طــابور البيــشمركه الطويــل طريقــه ..كنــا نرتقــي المرتفــع صامتين..واقتربت منا لعلعة الرصاص و دويّ القذائف ، وانتفضت ورفعت رأسي إثر انفجار قذيفة مدفع ..إذنْ ؛ لم يبق الكثير أمامنا، سنصل قريبا ، و واصلنا السير..لكنما عيناي معوّشتان و تشهدان الخالة ميرم ! أ هي حقيقة أمامي ، أم شبح يجوس في مخيّلتي؟! أقترب منها، فتبتعد عني و هي تصيح : " " هوو يا الله يا ناس يا أشجار يا حيطان يا أرض يا سماء إني أخاطبكم جمعيا؛ فلا تتحججوا من بعد (أن ميرم لم تحذرنا) حذار أن تغلطوا وتأكلوا هذا الخراء مرة أخرى أن تقولوا : (سيابند ابن ميرم كان خائنا) إبن الفقير لايخون ...." وأعادني هدير طائرة من شرودي ؛ فرفعت رأسي وتمعّنت فإذا بالتل المقابل لنا قد تسربل بالنيران والدخان، ورائحة البارود تغمرنا.." أينما وجد العسف ؛ وجد البيشمركه" وسارعنا في اتخاذ مواقعنا حسب توجيهات كاكه نبز و سرعان ما احتدم انهمار وابل الرصاص..وطبعاً يشعر المرء بمسحة خوف قبل أن تحتدم أيّة معركة، ثمّ يتبدّد الخوف مع اشتداد وطيس المعركة، لكن الغريب في الأمر هو إنني مازلت خائفا، بل أن هاجساً كابوسيّاً يجثم على قلبي " وا خجلتاه يا مستو يا ترى تتوجّس خيفة من دلير الوضيع؟!" وعندها ضغطت على الزناد لكن لم تنطلق أيّة رصاصة ! فغيّرت الشاجور بسرعة، ثمّ كم إشتهيت سيكارة " لا، ليس الآن وقت تدخين يا مستو...إنما فيما بعد.." وثبّت عيني على الفرضة والشعيرة ، وإذا بصور ميرزا و خليفه خدر والقافلة تبدو لناظري وتختفي بسرعة : " إذنْ فهو رجلك المفضل! تأكد يا خليفه ان قافلة يقودها جاهل اخرق مثله ؛ لايستطيع مائة حكيم ونبيه إعادتها إلى سواء السبيل ، بل تسقط في مائة هاوية حتى لو إنبسطت الأرض أمامها!" وتقدّمت نحو الأعلى قليلاً ، فلمحت مجاميع من الجحوش " يا إلهي إنها معركة بين البيشمركه والجحوش الكرد!" وضجت أوصالي بالحركة وأنا أسدد بندقيّتي نحو الهدف، لكن أذنيّ إمتلأتا بصوت جهير حاولت طرده كذبابة ، لكنما سدى ، فقد كان صوت ميرزا " البيشمركايتي محبّة خالصة بلا رياء" فجاشت و هاجت جوارحي ، ورحت أطلق الرصاص ، حيث كان ألق شبيه ببسمة على شفتيّ رضيع يغمر قلبي مع

كلّ إطلاقة...وراح صوت أمّي يغزو مسمعي: " أنظروا إلى وجهه البشوش فهو كوجه الملائكة ..." لكنني أتساءل الآن : لماذا لم تزرني مع أبي؟ يبدو انها كانت حاملاً تشعر بالخجل من منظرها ، بل خشيت أن أمازحها أمام رفاقي مثلما في السابق " متى سيتوقف معملكم عن الإنتاج يا ماما؟!" آه! كم أنا مشتاق إليك يا أمّي ! أبداً لن أنسى تلك الأماسي الصيفيّة ، إذ كنت أعود من العمل ، فتحدبين عليّ وتدلكين يديّ وقدميّ ، وكنت تمطرينني بالقبل ؛ لو أتحت لك المجال ، ولو كنت الآن هنا ؛ لما بخلت عليك، بل كنت أمنحك مائة قبلة بدل واحدة...أمّاه ! شكراً جزيلاً للجواريب التي حاكتها يداك المباركتان...
و فجأة سرى الخدر في ساقي ، وعلت صيحات البيشمركه:
- لاحقوهم إنهم يفرّون..إحرموهم من فرصة الفرار...لقنوهم درساً بليغاً؛ لئلا يجنحوا إلى الضلال مرّة أخرى وتطأ أقدامهم ترابنا المقدس.
كان البيشمركه يصولون و ينقضون على الأعداء كالأشبال ، فاستجمعت قواي للإندفاع ، خصوصاً وان إحدى ذراعيّ وإحدى ساقيّ كانتا متخدرتين قليلاً، وتقدّمت خطوتين ، لكنني كبوت على وجهي، وقبل أن أستقيم واقفاً ...آخ...شبّت حرقة شديدة في فخذي من الخلف ! فسارعت بلف الجرح بيشماغي ، واندفعت راكضاً إلى الأمام غير شاعر بأيّ ألم ، ولا أعرف كم المسافة التي قطعتها ، حيث سقطت على الأرض وغبت عن الوعي.

***

هاهنا في أحضان هذا الوادي ، مازالت الشمس هي المؤشرة الرئيسة لمعرفة الوقت صباحاً ، ظهراً و مساءً...
كان بين (الخال عزيز) و(خليفه خدر) جفوة قديمة متأصّلة، و طالما كان الصبية النزقون يشاكسون الخال عزيز ويزعجونه بالقول:
- إختلط عليك الوقت يا خال عزيز؛ وقد فات موعد الصّلاة...!
فإذا كان القائل من أهالي القرية ؛ فكان يستشيط غضباً، ولايستثني برشقات شتائمه أمّاً أو أختاً أو حيّاً أو ميّتاً! أمّا إذا كان القائل من البيشمركه ؛ فكان ينظر إليه بنظرات طافحة بالعتاب ويقول: " أينما وجد العسف ؛ وجد البيشمركه.."

بحيث ذاعت هذه العبارة على ألسنة البيشمركه، و راح معظمهم ممّن كانوا يعرفون الخال عزيز أو لايعرفونه يرددونها " أينما وجد العسف ؛ وجد البيشمركه" كما أطلقوا إسم (شجرة الخال عزيز) على شجرة التوت أمام المسجد.

***

كانت الشمس على وشك الغروب ، لمّا فتح مستو عينيه تحت شجرة الخال عزيز، ورأى الخال عزيز واقفاً بخشوع ورع يتمعّن في جسده المسجّى..إبتسم مستو كأنه يبش في وجه الملائكة :

- أيـ..ن..ما ..و..جد الـ..عس..ف...أوّاه ! ظامىء...تكاد أحشائي تحترق...

تراجع الخال عزيز واستدار نحو الشمس الموشكة على الغروب وأجهش في البكاء...وعندها شق ميرزا طريقه بين الحشد وقرفص قرب مستو المسجّى ، ووضع يده على قلب مستو:

- مستو..عزيزي مستو...هل تعرفني؟

فأجابه مستو بنظرة حانية واختلجت شفتاه بابتسامة عذبة كأنه يقول له : " صدقت في قولك: تأكد يا خليفه ان قافلة يقودها جاهل اخرق مثله ؛ لايستطيع مائة حكيم ونبيه إعادتها إلى سواء السبيل ، بل تسقط في مائة هاوية حتى لو إنبسطت الأرض أمامها!"

وألحّ ميرزا:

- مستو يا مستو ..أستحلفك بمقدساتك قلْ شيئاً

ففتح مستو عينيه وجال حواليه ناظراً إلى المتحلقين به ، وبدا كأنه يستجمع كلّ ما بقي من قواه ، واختلجت شفتاه المتمتمتان:

- الإنسان ...حقيقة كبيرة ...الفعل يختبرها و....آه.....آه......الموت يصدر عليها....آآه...آه...الحكم الأخير.

و راح وجهه الشاحب ينضح بالعرق، وتجحظ عيناه كمثل كتكوتيّ عصفورين خائريّ القوى يحاولان الطيران خوفاً من أفعى.. ثمّ تشنّجت شفتاه:

- ميرزا أذناي .تـ..ط...نان

(١٠)

سار صادق دوغري محني الظهر، واهي الركبتين و مكروبا وراء حشد من المشيّعين الواجمين الذين يغشى الحزن وجوههم ، حيث كان شابان يمسكان طرفيّ تابوت مغطى ببساط أحمر خشن مشدود بظهر بغل..

- حين نصل إلى الجهة الأخرى سننقله بعربة تراكتور

- وا خسارتاه! على استشهاد مستو؛ فتى ولا كلّ الفتيان...

وكنت تسير شاخص النظر إلى الأرض ، مشوّش الحواس ، وكأنك غائب عن هذه الدنيا! فقد حدّثوك كثيراً، لكنك لم تسمعْ شيئا، بل كان تفكيرك منصبّاً على كمْ رصاصة أصابته وفي أيّ موضع...؟!

- ليس مستو إبنك وحدك ، ولم تفقده وحدك ؛ لقد كان بحق إبننا البارّ جميعاً.

- لقد أرسل ميرزا في طلب المعول والمجارف لفتح قبره

- نستحلفك ألا تغيّر مثواه ؛ إذ تبدو هذه الأرض من نصيبه

- لقد عنينا بالغ العناية بغسله وتكفينه، و لو كنت بنفسك موجوداً؛ لما فعلت أفضل منا
- ثقْ أن قلوب كبار القرية وصغارها يعتصرها الحزن والأسى على رحيله؛ فحتى الذين لم يصلّوا طوال حياتهم قصدوا قبره مساءً وصلّوا عليه!
- جازاهم الله خيراً على شهامتهم و أدام الألفة بين القلوب، لكنهم لايدرون لماذا غيّرت مثواه! فالوجع المنغرس في قلبي لايتحمّله أيّ قلب آخر...!
رفعت رأسك ، وندّت من فمك آهة طويلة و زفرة حرّى...وغمرتك رائحة غريبة منعشة شديدة الخصوصيّة ، وكان الرجال قد كمّموا أنوفهم وأفواههم و لم تدر هل من الحزن أم من تلك الرائحة؟! إنها رائحة غريبة يا ترى رائحة ماذا؟! فهي تشبه رائحة وردة ذاوية حديثاً ، لا، بل هي رائحة امرأة نفساء حصراً!
أجلْ ؛ إن المرأة النفساء كثيرة الأحلام ، وأنت بطبعك تخشى كثيراً أحلام المرأة النفساء! وكلما كانت آته تلد طفلاً؛ كنت تنحر ذبيحة قرباناً لسلامتها ..أمّا هذه المرّة ؛ فاللعنة على الفاقة والضنك ...وصار كلك رجاء أن تتعافى آته وتنهض بسرعة قبل أن ترى أيّ حلم ...لكنما وقع المحذور ؛ وتمخض حلمها عن هذه الفجيعة المهوّلة: " أرجوك يا رجل أن تنحر ذبيحة نذراً، وأنت يا ربّ إرفق بنا في شيخوختنا ، ولعنة الله على الشيطان الرجيم ؛ فقد رأيت في حلمي مستو واقفاً أمام مسجد حليق الشعر مرتدياً ملابس سوداء وهو يقهقه ضاحكاً !"
و جفلت على هدير التراكتور، وقدّم الحضور تعازيهم الحارّة لك ، و بعدها ركبت التراكتور يصحبك إثنان من أقربائكم البيشمركه..
" يا ترى ماذا نسمّي إبننا هذا يا آته؟"
" ليسمّيه مستو ..إذهب و زره ، وليجد إسماً جميلاً له"
و سار التراكتور واقتربتم من المدينة
" سمّه أيضاً مستو"!
وبلغتم طرف المدينة، حيث توقف التراكتور ، ونزل منه البيشمركه ؛ ليعودا من حيث جاءا ، ولكنك سألتهما قبل الوداع:
- لي سؤال يؤرّقني ؛ فأرجو و أستحلفكما بالله وكردستان أن تجيباني عنه بكل صراحة...هل كان مستو فتى جباناً يولي الدبر في المعارك؟

- كـلا ، والله كـان بطـلا مقـداما فـي كـل المعـارك ، بـل كـان فـي طليعـة الصـائلين..لكن لماذا سألت هذا السؤال؟!
فانطلقت منك تنهيدة عميقة حارقة:
- لأنه أصيب من الخلف!
فتسمّرا في مكانيهما متخشبي الأوصـال، بحيث لو طعنا بالخنـاجر لما سـالت منهما قطرة دم!
ثمّ صافحاك موذّعين إيّاك ، فأشرت إلى جثمان فلذة كبدك :
- أستودعكما الله...
" وا أسفاه! فهو لمْ يشهد السنة الجديدة، ولو كنت تدري بأنه سيفارقكم بهذه السرعة ؛ لكنت تزوره أسبوعيًا ...أجلْ ؛ فعند الفراق تتجلى المحبّة"

ت ٢ / ١٩٨٦ ياخسَمَر

(*) دوغري: كلمة تركيّة شائعة تعني (صحيح ، مستقيم)

(**) هنا تلاعب باسم (سلام)

(***) تلاعب بلفظتيْ (هه له = غلط) و(هه لخه له تاندن= تضليل)

إشكاليّة الثورة والواقع
في (الرحيل الدامي)

أبو شهاب

" ليس بالسلاح وحده تقوم الثورة و تحيا" مثل هذا القول قد ينال إستحسانا وقبولاً على مضض ، وقد يثير نقاشاً ما في أقل الإحتمالات...أمّا إذا قيل: "ليس السلاح هو الشرط الأول للثورة" ؛ فالنقاش لايلبث أن يتحوّل إلى إشكال، وربّما إلى مماحكة سياسيّة.

و بما أن كلا القولين السابقين ينشأ عن إستقراء عمل أدبي ، ويُناقش في سياق التعرف على ملامح شخصيّة قصصيّة ؛ فإن منطق السياسة، في الأستقراء و النقاش على حدّ سواء، لايعود معنيّا بالأمر هنا إلا بقدر ما تفسح له ضرورات المعالجة الأدبيّة من مجال...

ما هي الثورة؟

لايختلف إثنان على ان الثورة رفض منهجي لواقع معيّن أو حالة معيشة، وفي الوقت نفسه مطالبة بواقع بديل أو حالة مغايرة..وهذا يعني أن الثورة هي (لا) و (نعم) متتاليتان ومترابطتان ؛ فالثورة بدون الـ (لا) تنتفي و بدون (نعم) تتحوّل إلى مجرّد نزعة عدميّة. ولكن سؤالين يفرضان نفسيهما: (لا) لأيّ شيء؟ و (نعم) لأيّ شيء؟

وبعبارة أخرى: ما هو المرفوض و ما هو المقبول؟

لاريب في ان العلاقة القائمة بين الـ (لا) و الـ (نعم) تفضي إلى الغايات التي تتبناها الثورات ، وإن إحلال المقبول محل المرفوض يفضي إلى تحديد الوسائل الملتمسة. واستناداً إلى التراث الثوري العالمي ، النظريّ منه خاصّة؛ فإن " شرف الغاية من شرف الوسيلة" على حدّ تعبير ماركس ، ويتبع ذلك إذا شابت الوسيلة شائبة أو إعتورها سوس أو تخللتها رذيلة؛ فإن الغاية تفقد مصداقيتها ومشروعيتها، بل يحيط الشكّ بجدواها و بإمكانيّة تحقيقها...وما يثير الإستغراب

هو أن ثمة آلافاً مؤلفة من الناس مازالت تعتقد و تؤمن جدّيّاً بتلك المقولة و مصداقيتها الواقعيّة وممارستها التطبيقيّة رغم كل الرذائل الممارسة يومياً في كلّ أرجاء العالم بما فيها الثورات باسم الغايات الشريفة السامية!

وإذا كان الرائج أن ماكيافللي هو أول المنظرين لمبدأ " الغاية تبرّر الوسيلة" والداعي إلى تطبيقه ؛ فالصواب هو أن هذا المبدأ كان سائداً و ساري المفعول قبل ماكيافللي بزمن سحيق ، منذ أن وجدت المصالح المتباينة وقامت الخلافات والنزاعات والصراعات بينها، ثمّ مابرح هذا المبدأ ساري المفعول على أفضل وجه ، بل أن عصرنا هو عصره الذهبيّ بلا منازع! وبلا أيّة أوهام وأيّة مماحكة غير مجدية نقول أن الثورات المعاصرة ، بما فيها الإشتراكيّة، قد برعت في تطبيق وتكريس هذا المبدأ براعة لاتقل عن براعة الدول والحكومات؛ ولاعجب في ذلك ؛ مادامت تطمح هي أيضاً أن تصبح دولاً وحكومات ، وذلك بالعكس من مبادئها وشعاراتها المطروحة في بياناتها وبلاغاتها، ناهيكم عن هجماتها الصاعقة على الايديولوجيا البرجوازية و دعاتها ومفكريها، وفي مقدمتهم ماكيافللي السيىء الحظ! وقد لايصدّق الكثيرون أن لينين نفسه (التلميذ المتفوّق لماركس و نبيّ الثورة الإشتراكية) كان يردّد ويؤكد : " لا أخلاق في السياسة ، هناك فقط مصالح" و هو يعني أن كلّ فعل مباح و كلّ وسيلة مشروعة ؛ من أجل الغاية المنشودة : التحرّر، الإشتراكية ، العدالة ، مجتمع المساواة...إلخ وهناك آخرون كثيرون قد يهزون أكتافهم باستخفاف أو لامبالاة وهم يقولون : " و ماذا بعد..؟ لقد جرى الأمر هكذا...ربّما يكون هذا ضروريّاً ...و لامناص منه...إلخ" وهو قول لايخلو من الصواب؛ حين ترّدده جموع تعوّدت على السلبيّة واستساغتها كشكل لوجودها؛ إذ أن للرذيلة السياسية قوة البديهة وسلطة القانون و شفرات التاريخ ! بل أن أغلبيّة الناس لاترى ضيراً في الإنخراط في دائرتها و ممارساتها، وهي بذلك إنما تختار الـ (نعم) النهائيّة وتنغمس فيها بوعي أو بلا وعي...إلا أن بطل روايتنا هذه ليس واحداً من هذه الأغلبيّة.

لقد سبق للمفكر والأديب الفرنسي ألبير كامو ان تساءل: " الغاية تبرّر الواسطة ؟ هذا ممكن ، ولكن ما الذي سيبرّر الغاية؟ على هذا السؤال الذي يتركه الفكر التاريخي معلقاً، يجيب التمرّد: الواسطة ستبرّر الغاية" (البيركامو/ الإنسان المتمرّد/ ترجمة : نهاد رضا/ منشورات عويدات/ ص ٣٦٢)
حسناً، ما معنى ان الواسطة ستبرّر الغاية؟!
لاندحة من عودة خاطفة بهذا الخصوص إلى كامو في كتابه المذكور.

يبدأ التمرّد بوعي الإنسان لكينونته، و بوجود (حدّ) يعني تجاوزه من قبل (الآخر) تحطيم هذه الكينونة أو جانب منها، أو إضطهادها على أقل تقدير. وعن ذلك ينشأ لدى الأفراد إدراك " بأن في الإنسان شيئاً يمكن للإنسان أن يتوحد منه ذاتياً، و لو لوقت قصير" وهذا الإدراك يتضمن بالضرورة قيمة إيجابيّة تقف ضدّ وعلى النقيض من قيم (الإنتقام) أو(الفعل) أو(الحقد): " الغل هو دائماً غل ضد الذات، أمّا المتمرّد ففي أول حركة تصدر عنه، يرفض من كيانه. إنه يناضل من أجل سلامة جزء من كينونته، ولايسعى إلى التوسّع ، بل إلى تأكيد الذات" فالمتمرّد " يطالب بحريّة معيّنة لشخصه، ولكنه لايطالب في أيّة حال من الأحوال بحق تحطيم كينونة الآخرين و حريتهم ؛ إذا كان منطقيّاً. إنه لايذلّ أحداً. والحرية التي يلتمس ؛ يطالب بها من أجل الجميع، والحرية التي يرفض؛ يمنعها عن الجميع، فهو ليس فقط عبداً ضدّ سيّد، بل هو أيضاً إنسان ضدّ عالم السيّد والعبد" (نفس المصدر ص ٣٥٢) فيبدأ تمرّده بالإنتظام في ثورة على السلطة الغاشمة التي تستعبده أو تضطهده: (سيّد، حكومة، سلطة دينيّة...إلخ) لكن هذه الثورة ما إنْ يشتد عودها، وتتوطد أسسها، وتبدأ بإحراز أولى نجاحاتها؛ حتى تتنكر لأصول التمرّد، و تواجه أحد مأزقين: إمّا إنكار نفسها، أو إنكار كل ما سواها، حيث تجد نفسها مضطرّة إلى الإختيار بين الـ (نعم) النهائية أو الـ (لا) النهائيّة، أي بين التخلي عن التمرّد، أو التنكر له.

و الحال ان التاريخ ، كما يبيّنه كامو، يتجه دوماً بالثورات المعاصرة إلى العدميّة ، أي إلى خيانة قيم التمرّد النقيّة بإنكار كلّ شيء ماعدا نفسها، بما في ذلك: تبرير إمتهان كرامة الإنسان والعنف والقتل ، ومن ثمّ إستبدال وضع

التعسف السابق الذي ثارت عليه بوضع جديد لايقل عنه تعسفا؛ تحججاً بتحقيق أهداف وغايات نبيلة مؤجّلة دوماً إلى أزمنة غير معلومة. و مثلما لايوجد عبيد بلا سادة و لا سادة بلا عبيد؛ لن تسود العدميّة والإنكار التام بدون توافر عنصر الخضوع الكلي للطرف الآخر، أي لا سيادة لـ (اللا) النهائيّة على طرف الوضع المستجد بدون تكريس الـ (النعم) النهائيّة على الطرف الآخر كله، وعندها ينبغي على المتمرّد المتنكر لمباديء تمرّده أن يختار في هذا الوضع المستجد إحدى الحالتين: عبد أم سيّد؟ ضحيّة أم جلاّد؟ مستكين أم مستبد؟ وعند هذا الحد حيث تغدو حركة التمرّد المنتظمة في ثورة ما أداة للسلطة الكليانيّة الجديدة وللنزعة العدمية التاريخيّة ؛ ليس للمتمرّد الحقيقي الذي مابرح أميناً لمباديء تمرّده إلا أن يقف وحيداً، غريباً و أعزل ، بل مصرّاً على مواصلة تمرّده وكفاحه حتى نهاية المطاف؛ حيث لا خيار له حتى لو أدرك عبث كفاحه، وأن يظلّ متعلقاً برؤيته السوية للكرامة والجماليّة الإنسانيتين المدهوستين تحت أقدام العدميّة الغليظة، وملحّاً في طرح الأسئلة على نفسه و على العالم: أين هي الغايات التي أرتكبت من أجلها كل الرذائل والنذالات والحماقات والجرائمن وأهدرت في سبيلها كل تلك الدماء، وبرّرت كل تلك الوسائل؟! وأن يظلّ في الوقت نفسه ملحّاً على طرح الجواب نفسه عن ذلك (السؤال الذي يتركه الفكر التاريخي معلقاً) : الوسيلة هي التي تبرّر الغاية؛ وإلا فلا غاية هناك البتة، وليس هناك سوى العبوديّة والعنف والرذيلة ، بل ليس هناك سوى العدميّة العمياء الضاربة في مجاهل التاريخ على غير هدى!

لقد قلت أن بطل روايتنا ليس واحداً من (الأغلبيّة) التي تقبل الإنخراط في دائرة أو حراك النزعة العدميّة باختيار الـ (نعم) النهائيّة ، أو الـ (لا) النهائيّة؛ إذنْ أين يجد موقعه بين إشكاليّة مستعصيّة الحل ، أو التجاوز بين ثورة إتخذها إطاراً للتمرّد و واقع متولد عن هذه الثورة يتنكر لأصول التمرّد ، و ما انفكّ يتجه نحو العدميّة.

إبتداءاً، لايبدو البطل ، عبر التعرّف على أولى ملامحه، على قدر كاف من النضج و وضوح الرؤية؛ فهو يقرّر الإلتحاق بصفوف البيشمركه في الجبال

ناشدا إجتراح البطولات و تسطير الأمجاد أكثر من نشدانه لممارسة التمرّد بمعناه الحقيقي و تحقيق القيم التي يفترضها هذا التمرّد: " -" إنك طفل...ما زلت طفلاً " لايكف أبي عن ترديد هذه العبارة، كما لو انني لمْ أفطم بعد! والله لأفعلنّ مالم يخطر ببال أحد ؛ بحيث يحوك كلّ شخص ملحمة لي !" ومع ذلك لابدّ من الإفتراض بأنه مدفوع إلى الجبال لرفضه وضعاً معيّناً إحتجّ عليه ، لكنه احتجاج ورفض العبد المناهض للسيّد ، وليس رفضاً و احتجاجاً ضد (عالم السيّد والعبد) هذا هو الإنطباع الذي يخلفه البطل في نفس القاريء في لقائه الأول به، و هو لقاء سريع يتم في الجملة الأولى من الرواية، علماً أن البناء الفني للرواية بلغة النقد يستند إلى (البنية المتعدّدة الأصوات) فهناك: (صوت الأب) و(صوت البطل) و(صوت ثالث) يتخلل هذين الصوتين هو صوت القاص نفسه، كما ان أحداث الرواية تجري في خطّين يتخللان بعضهما بالتناوب. وعندما يلتقي القاريء بالبطل مرّة أخرى، بعد صفحات عديدة؛ يجده (سنماً للغاية) بعدما تمرّس في الواقع ، وأعرض عن سراب البطولات والأمجاد، ويعاني في تفكيره من تناقض قد لايعيه تمام الوعي؛ حيث يرى (البيشمركايتي هي لب و جوهر الثورة) والثورة (تغيير في كلّ ميادين الحياة) أمّا واقع الحال فثمّة (قتال) وليس هناك (ثورة) وإذا ما أريد للقتال أن يغدو ثورة؛ فلابد من أن ينطبع بـ (طابع الكادحين) و " أنْ نحذر من البرجوازيين؛ لأن من شيمة البرجوازيين في العالم قاطبة ان يمضوا شوطاً أو شوطين ، ثمّ ينحرفون عن الطريق ، بحيث تغدو الثورة مصدر خشية وتهديد لهم! " ومع ذلك نسمعه بعد بضعة أسطر يقول في حوار داخلي: "... صحيح أن البيشمركايتي عبادة، ولكنك لاتدرك في أيّة حمأة آسنة نتمرّغ! حمأة تعجّ باللصوص والأفاقين والمهرّجين والمتطفلين والمشعوذين والمداهنين والمقاولين والتافهين والمرائين والسياسيين التجار المحترفين ! أما ترى النيران تحدق بنا من كلّ صوب ؛ إذا بقينا ماكثين في المستنقع وتغزونا الرائحة النتنة شيئاً فشيئا، وإذا ما إخترقنا الطوق خارجين ؛ فنصير طعماً للنيران؟! فماذا

نفعل يا ميرزا؟ لابدّ ، كما يقول الأستاذ محمد، أن نقذف النتانة في النار بأيدينا؛ لكي نمتلك أنفسنا تماماً.."

ويتمثل التناقض في تفكير البطل فيما يلي: إذا كان واقع البيشمركايتي (العمل الفدائي) قد إنتهى إلى أن يتحوّل إلى حمأة آسنة تعج بكل تلك الأصناف الكريهة من الناس ؛ فمن المستحيل تحويل (القتال) إلى (ثورة) ويكون مجرّد التفكير في إمكانية ذلك ضرباً من السذاجة...ويبدو أن الأحداث اللاحقة في الرواية ستدلّ على هذا التشخيص و تحسم التناقض لصالح الواقع (الحمأة الآسنة) ضد البطل ؛ إذ سيبقى القتال مجرّد (قتال) و(التغيير في كل ميادين الحياة) سيلوح حلماً طوباوياً أو مجرد وهم ، وتشتد رائحة النتانة و تتصاعد فتزكم أقوى الأنوف وأضعفها على حدّ سواء، وستدنو النيران أكثر من الأجساد، بل ستتكاثر أصناف (اللصوص والأفاقين والمهرّجين...) وتقوى سطوتها، ثمذ سيتضح لاحقاً في أحداث الرواية كمثل الواقع خطأ تصوّر البطل بأن (البرجوازيين غير قادرين إلا على قطع شوط أو شوطين...) بل سيتضح له لاحقاً بأن (الحل والربط بأيديهم)؛ فلا خلاص له و لسيابند وأمثالهما من الحمأة التي ستقضي عليهم ، وإن (القافلة) ستصيبها النكبة لا محال، ناهيكم عن إنها لن تبلغ شاطيء الخلاص المنشود.

ثمة جملة يخاطب ميرزا إسماعيل بطل الرواية ؛ فيتخذها شعاراً لأنها تعبّر أصدق تعبير عن نزوعه : " البيشمركايتي (العمل الفدائي) عبادة خالصة بلا رياء" وثمة جمل أخرى يخاطب ميرزا بها (خليفه خدر) توجز مايؤول إليه التمرّد بعد التنكر لمبادئه : " تأكد بأن قافلة يقودها جاهل أخرق مثله ؛ لايستطيع مائة حكيم ونبيه إعادتها إلى سواء السبيل ، بل تسقط لا في هوّة ، بل في مائة هاوية حتى لو إنبسطت الأرض أمامها!" وهناك عبارة أثيرة يتفوّه بها (الخال عزيز) فتذيع على ألسنة الناس ، وهي تختصر الوضع الذي يمزقه التناقض بين التمرّد والعدميّة : " أينما وجد العسف ؛ وجد البيشمركه.." ويتضح في المشاهد الأخيرة للرواية بأن البطل الذي يبدأ التمرّد على نحو رومانسي ويدرك بأن " البيشمركه هو من أشعل في ذاته ثورة عارمة" سيغدو ضحيّة للنزعة العدميّة

التي أفضى إليها تفسّخ التمرّد بعد انقطاعه عن جذوره، ويتقبّل موته الخاص مرتداً: " أينما وجد العسف ؛ وجد البيشمركه.." وكأنه يصرّ مؤكداً ألا مناص من التمرّد والكفاح رغم العدميّة السائدة، بل لا مناص من أن يكون المرء بيشمركه ؛ مادام هناك عسف حتى لو أضحى ضحيّة لذلك الوضع ، بل و يتقبّل موته الخاص إختياراً ؛ " فالتمرّد الأمين لأصله يدلّ في التضحية على ان الحريّة الحقة ليست إزاء القتل ، بل إزاء موته الخاص" (المصدر السابق ص ٣٥٤)

لاتتحدّد الأرضيّة الزمنيّة للرواية بفترة أو مرحلة معيّنة ؛ فثمّة تداخل بين زمنين مثلما فيها تداخل بين خطّين ، وقد تكون أحداث (القافلة) على أحد ذينك الخطّين ترميزاً لمسيرة الثورة الكرديّة وانتكاستها في عام ١٩٧٥ : ".. يا أختاه اذهبي واخبريه أن قسماً من القافلة قد انفصل عنها ، والقسم الأكبر منها لايجد سبيلاً للخروج من (جبل الصدّ ما ردّ) ولن ينجو منهم أحد ؛ حتى لو إمتلك سبع أرواح!" بينما تبدو الأحداث الدائرة على الخط الأخر بمثابة إستمرار و تقاطع مع أحداث (القافلة)..إن الأحداث الدائرة على كلّ خط من كلا الخطّين تبدو كـ (معادل موضوعي) للأحداث الدائرة على على الخط الآخر، و مايعزز هذا الإعتقاد هو ان مفتاحيّ الخطين (إذا جازت مثل هذه الإستعارات) نجدهما لدى شخص واحد هو ميرزا إسماعيل، وهما عبارتاه المتكرّرتان في الرواية: " البيشمركايتي عبادة خالصة بلا رياء"و " تأكد بأن قافلة يقودها جاهل اخرق مثله ؛ لايستطيع مائة حكيم ونبيه إعادتها إلى سواء السبيل ، بل تسقط لا في هوّة ، بل في مائة هاوية حتى لو إنبسطت الأرض أمامها!"

والملاحظ أن البطل لايبدو عنصراً فاعلاً في أحداث الرواية، أو مانعاً لها ، أو مشاركا في صنعها ، أو مؤثراً فيها، وإنما يبدو كمثل مرآة تتمرأى فيها صور الشخصيات الأخرى وتتوالى عبرها الأحداث و تنعكس عليها ظلال الإشكاليّة التي يعيشها بين تمرّد أراده أن يكون ثورة حقيقية وبين واقع متفسّخ لايكف عن إخماد أصوات التمرّد الحقيقي ، لكن هذا لايشكل عنصر ضعف في الرواية أو ينتقص من مستواها الفني ، وإنما يشكل تصويراً تكنيكيّاً ناجحاً في رسم ملامح البطل في بنية روائيّة متعددة الأصوات ، أمّا مايشكل نقطة ضعف

في شخصية البطل فهو صمته إزاء جريمة إغتيال (سيابند) وامتناعه الإدلاء حتى لأبيه ، و لو بجملة، عن مقتله ، وهو سكوت غير مبرر قطعاً ؛ مادام قد قرر تقبّل موته الخاص.

لابدّ من القول ، قبل الشروع بقراءة الرواية، انه من السذاجة والعبث أن يفتش القارىء في الوجوه الواقعية عن وجه : (محمود) أو (مستو) أو(سيابند) أو الآخرين من شخصيات الرواية ، أو أن يقارن أو يطابق بين أحداث الرواية وما يعرفه هو من أحداث الواقع ، ومع ذلك قد تكون ملامح محمود متوزعة على وجوه الكثيرين، وبعض ملامح مستو في وجوه القليلين جداً. أمّا المقارنة والمطابقة فلن تؤدي إلا إلى سوء الفهم ؛ لأنه " إن كان ثمة حقيقة في العمل الفني ؛ فإنها لاتوجد عادة في تطابقها مع الواقع الفعلي أو محاكاتها له" حسب (الواقعيّة/ ديمين كرانت/ ترجمة: د. عبدالواحد لؤلؤة/ ص٢٨) ثم ان " العلاقة الداخلية بين الواقع والخيال تشكل أساس شخصية الأدب" كما يقول والاس ستيفنز(ص ٣٠ المصدر نفسه)

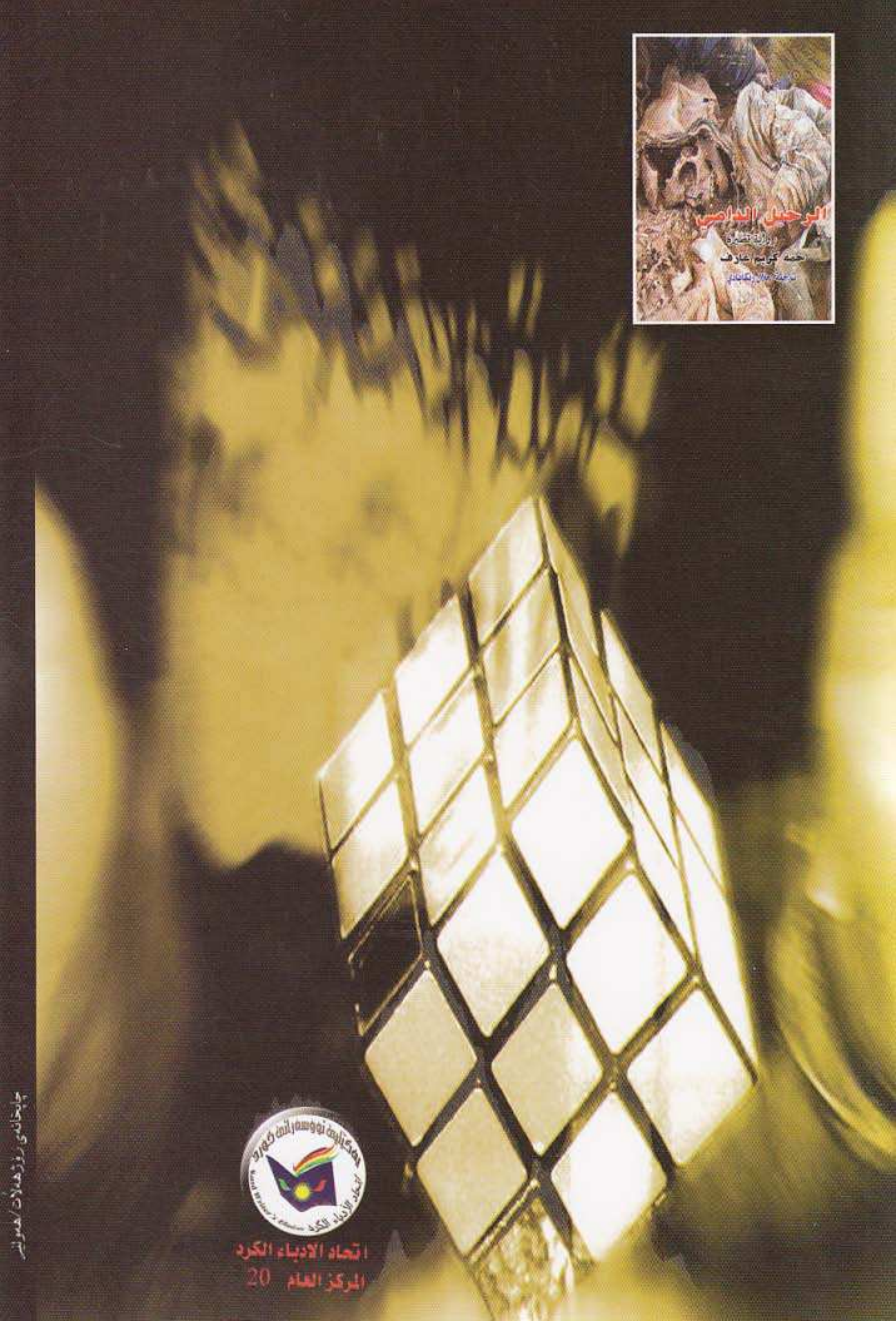
عن المترجم

* جلال حسين محمد زنگابادي- لُرستاني(١/١٢/١٩٥١كردستان العراق)
* شاعر، مترجم وباحث عراقي باللغتين العربيّة والكرديّة ، ويترجم إليهما عن: الفارسية،الإنگليزية،الإسبانية والآذرية..ينشر باسميه (ج ورده) و(ج زنگابادي) وأكثر من عشرة أسماء مستعارة.
* عصاميّ النشأة فبعد اغتيال والده في أواخر١٩٦٠ لنشاطه الوطني؛ إسترجل مبكّراً وانخرط في شتى الأعمال والحرف: صانع تنانير، عتّالاً، عاملاً في مكافحة البعوض وعامل بناء... ثمّ بائع كتب على الأرصفة في السنوات(١٩٨٧-١٩٩٧) وقد تعرض للترحيل والتبعيد وفقد دارين له حجزاً ونسفاً في العهد العفلقي البائد.
* تثقيف ذاتي موسوعي. إبتدأ القراءة الجادّة منذ (١٩٦١) و الكتابة منذ(١٩٦٣) ثمّ النشر في الجرائد والمجلات منذ(١٩٦٧) لكنه لم ينشر حتى الآن إلاّ عشرة من كتبه المؤلفة والمترجمة و بضعة كتب بالإشتراك مع آخرين
* تخرّج في دار المعلمين الإبتدائيّة بكركوك سنة ١٩٦٩ وعمل معلماً في التعليم الإبتدائي (١٩٧١- ١٩٩١) ثمّ في الجرائد والمجلات محرراً، مشرفاً ثقافياً ولغوياً، في الأقسام والملفات الأدبية والفنية والثقافية، وسكرتيراً ومديراً ورئيساً للتحرير لبضع مجلات في اقليم كردستان العراق.
* راجع ونقّح الكثير من النصوص الأدبية والبحثية والكتب المؤلفة والمترجمة لأبناء وباحثين كرد وعراقيين ومنهم أساتذة جامعيون.
*ساهم في الهيئات التأسيسية لـ(جمعية مترجمي كردستان١٩٩٢)و(الحركة الشعبية الكردستانية١٩٩٦)،(المركزالثقافي والإجتماعي لكركوك١٩٩٨)و(مجلة نه وشه فه ق٢٠٠٣بكركوك)
*شارك بدور شاهد رئيس في الفيلم التسجيلي(الأراضي الضائعة) وهو عن تدمير البيئتين الطبيعية والبشرية في كردستان العراق/في٢٠٠٠
* له مساهمات متواترة على صفحات بضعة مواقع إنترنتية منذ١٩٩٩
* صدرت له:

١- أوتار التنائي.../ فرهاد شاكلي/ ترجمة عن الكرديّة/ ٢٠٠٤ دار الحصاد- دمشق/ سوريا
٢- ظلّ الصّوت و قصص أخرى/ حمه كريم عارف/ ترجمة وتقديم عن الكرديّة/ ٢٠٠٥ كركوك / كردستان العراق.
٣- قصائد تأبى أيّ عنوان و...../ جلال زنگابادي / مؤسّسة الرعد – كركوك/ كردستان العراق
٤- ها هي معجزتي(قصائد حب)/ جلال زنگابادي ٢٠٠٩ دار الجمل- بيروت/ بغداد
٥- سنة في الجحيم/ مذكّرات: مهاباد قَرَداغي/ ترجمة عن الكرديّة/ ٢٠١٠ وزارة الثقافة والشباب/ إقليم كردستان العراق- أربيل
٦- ديوان عمر الخيّام/ دراسة وترجمة منثومة عن الفارسيّة ٢٠١٠ منشورات الجمل – بيروت/ بغداد

٧- الثقافة الكردية، مشكلات ، معضلات وآفاق../٢٠١٠ منشورات مؤسسة سردم للطباعة والنشر – السليمانية
٨- الخادمة (رواية) كلاويج / (ترجمة) - مؤسسة المدى ٢٠١٢
٩- أسطورة كلي ناوكردان (رواية للفتيان) كلاويج / (ترجمة) - مؤسسة المدى ٢٠١٢
١٠- ثلاث قصص للفتيان / كلاويج / (ترجمة) - مؤسسة المدى ٢٠١٢
* نشر أيضاً أكثر من عشرة كتب مؤلفة ومترجمة على صفحات المجلات بمثابة (كتاب العدد) وعلى صفحات المواقع النتية.
* له قيد النشر أكثر من (١٥ كتاباً) منها : موسوعة الخيّام / خورخيه ماتريكي ، مرثية لأبيه، ترجمة عن الإسبانية ودراسة/ عبرشبّاك تاج محل لمحمود كيانوش ، عن الفارسيّة / هكذا شطح الكائن مستقبلئذ ، ملحمة مضادّة / ٨١ قصيدة مختارة لسركون بولص، ترجمة إلى الكردية / لنعرف الخيّام جيداً/ و ديوان الخيّام ... باللغة الكرديّة...

الفهرست



الرحيل الدامي
رواية قصيرة
حمه كريم عارف
اتحاد الادباء الكرد
المركز العام 20
چاپخانەی رۆژهەڵات/هەولێر